اتَّخذوهُ وكانُوا ظالمينَ

من سمات القرآن الكريم، في الرفعة التي لا تدانىٰ، والحكمة التي لا تجارىٰ، أنه قد يتعدد ذكر قصة من القصص فيه، إيجازاً أو تفصيلاً، ويلمح الناظر المتبصر من خلال ذلك، أن لهذه القصة ـ حيث ذكرت، وعلى أي وجه كان ذكرها ـ مكانها الطبيعي على محور الهداية بما يتناسب كل التناسب مع هذا المحور؛ ذلك لأن القرآن الكريم كتاب هداية قبل كل شيء، فأيان كانت الحكمة في إيراد تلك القصة تفصيلاً أو بإيجاز، بالتصريح أو التلميح، وجدناها ترد في كلام الحكيم الخبير، على الوجه المناسب، وتلك ـ والله أعلم ـ لمحة من لمحات الإعجاز البياني في هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي يتجدد معه على المدى، صدق الحقيقة التي استعلن بها الوحي قبل أربعة عشر قرناً أو تزيد، حيث قال الله جل ثناؤه: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

كان عليَّ أن أسوق هذه الكلمات بإيجاز لا يحتمل المقام أكثر منه، بين يدي العزم على اصطحاب ما جاء في سورة طه المكية، في شأن واحدة من مخازي بني إسرائيل وضلالاتهم، وهي اتخاذهم العجل معبوداً يعبدونه من دون الله، بعد أن سعدنا بصحبة ما جاء في هذا الشأن من آيات كريمات في سورة الأعراف، وذلك رغبة في المزيد من عطاء الكلمة

القرآنية على محور الهداية، وهي تعرض للقصة أو الواقعة في أكثر من موطن.

ولما كانت السورتان من القرآن المكي، وكان الحديث عن بني إسرائيل فيهما يؤكد ما أشرنا إليه سابقاً من أن الكلام على أجداد اليهود، والكشف عن ذميم خصالهم وما كان من ضلالاتهم، وأسباب الغضب عليهم في هذه الحِقبة المبكرة من عمر الدعوة الإسلامية، له دلالته في أن الأحفاد على نهج الأجداد وأن العصا من العُصيَّة، وأن اليهوديَّ هو اليهوديُّ لا يصرف عن ذلك زمان ولا مكان. ثم في عظم الأمانة التي يحملها المسلمون في مواجهة خطر اليهود على أمة الإسلام والإنسانية جمعاء، فكأن الله أراد أن يضع أيدي المسلمين منذ العهد المكي ـ وهم قلة مستضعفة ـ على تلك الحقائق التي ما كادت أقدامهم تطأ أرض المدينة مهاجرين، حتى تكشفت من الأحفاد بأخزى الصور وأشدها عتوّاً وإيغالاً في الضلال، وإن كان شيء من دس اليهود ومكرهم قد بدأ حتى في العهد المكي من وراء ستار، والمسلمون لما يهاجروا إلى المدينة، ولما يبتلوا بمجاورة اليهود عليهم لعائن الله.

والآيات التي نشير إليها من سورة الأعراف هي ما جاء في الآية الثانية والأربعين بعد المائة من قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [الأعراف: ١٤٢] وما جاء في الآيات الأربع بدءاً من الآية الثامنة والأربعين بعد المائة من قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا

﴿يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأعراف: ١٤٨ – ١٥١] وقد وقفتنا هذه الآيات المباركات، على أن موسى عليه السلام قد ذهب إلى الجبل للمناجاة، بعد أن تم ميقات ربه أربعين ليلة، وقد استخلف أخاه هارون في قومه قبل ذهابه، وأوصاه بالإصلاح وعدم اتباع سبيل المفسدين. كما وقفتنا على اتخاذ بني إسرائيل في غيبة موسى، عجلاً جسداً له خوار عبدوه من دون الله، متعامين عن أنه لا يكلمهم، ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ولا يهديهم سبيلاً، ومخالفتهم لهارون وعدم الاستجابة له ومحاولتهم قتله بعد أن استضعفوه، ثم كيف أن موسى عليه السلام عتب على هارون في أول الأمر ولما عرف الحقيقة، دعا الله لنفسه ولأخيه بالمغفرة والرحمة فقال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

أما الآيات التي ألمحنا إليها من سورة طه: فهي ما نجده بدءاً من الآية الثالثة والثمانين من قول الله تبارك وتعالى خطاباً لموسى عليه السلام: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُوْلاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴿٨٤﴾﴾ [طه: ٨٣ – ٨٤].

لما تم الميقات أربعين ليلة، سارع موسى عليه السلام مبادراً إلى الطور واستخلف على بني إسرائيل أخاه هارون، كما أسلفنا من قبل، لهذا قال الله جل ثناؤه ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُوْلاءِ عَلَى أَثَرِي﴾ يعني هم قادمون ينزلون قريباً من الطور. ثم عَلَّل موسى عليه السلام استعجاله، بأنه طلبٌ لمزيد من الرضى من مولاه سبحانه ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ أي لتزداد عني رضا.

وبعد الآيتين المشار إليهما، نقرأ قول الله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾﴾ [طه: ٨٥] حيث أخبر ربنا جل جلاله نبيه موسى عليه السلام بما كان بعده من الحدث في بني إسرائيل، والعماية الضالة التي وقعوا فيها، وهي اتخاذهم العجل الذي صنعه لهم السامري معبوداً من دون الله.

وفي الكلام على رجوع موسى عليه السلام غضبان أشد الغضب على قومه، بعد أن أعلمه الله تعالى بما حصل في غيبته وهو يسعد بمناجاته سبحانه وتعالى وما دار من الحوار بين موسى وبين قومه، ومحاولتهم تسويغ عملهم بما يكاد يكون أقبح من فعلتهم التي ضلُّوا فيها عن سبيل الحق وأعرضوا عن الدليل وخانوا العهد.. في الكلام على ذلك كله ـ وقد وقفَتنا على جملة منه سورة الأعراف بما يتناسب مع الغرض الذي سيقت لأجله القصة هناك ـ.. في الكلام عن ذلك كله نقرأ قول الله تعالى في أعقاب الآيات السابقة: ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن

رَبُّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ [طه: ٨٦ - ٨٩].

لقد غضب موسى من قومه أشد الغضب وحُق له أن يغضب، فهو فيما هو من المناجاة، والاعتناء بأمرهم وتسلم التوراة التي فيها شريعتهم، وفيها شرف لهم وذكر في الناس، أن لو صدقوا في اتباعها والعمل بأحكامها.. إذا بهم قد عبدوا غير الله. وكل عاقل له لبٌ وحزمٌ يعلم بطلان ما هم فيه، وما شاب عقولهم وأذهانهم من سلطان الهوى والخبال، لذلك جاء التعبير القرآني ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ والأسف شدة الغضب، والتغيظ به على من أغضبه، وإذا كان الأسف يأتي بمعنى الحزن أيضاً: فأي مانع يمنع من أن يكون موسى قد أغضبه ما حصل أشد الغضب، وأحزنه، فرجع إلى قومه وهو على هذه الحال.

ولقد أنكر عليهم موسى أن يفعلوا ما فعلوا وهو الخبال بعينه، وقد وعدهم الله وعداً حسناً ـ ووعده الصدق ـ أن يعطيهم التوراة. فهل طال عليهم العهد؟ أم أرادوا بملء اختيارهم أن يحل عليهم الغضب بعبادتهم العجل فأخلفوا موعده وتركوا المجيء بعده؟ ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾.

ألا إن هذه الحقائق أمانة في الأعناق، تدعو إلى مزيد من الاعتبار، وفهم واقع هؤلاء الناس في ضوئها، كيما يكون المسلمون ـ وهم على خط المواجهة المتعددة الميادين، المتشبعة المسالك ـ على وضوح في الرؤية، ودقة في وزن الأمور، وتقدير الوقائع، فيصدقوا الله مجاهدين صابرين، ليصدقهم بالنصر والتمكين، وهو ـ سبحانه ـ لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

obeikandl.com

كادوا يقتلون هارون

في رحلتنا القصيرة مع سورة طه ـ إحدى سور القرآن المكي ـ حملنا اصطحاب بعض آياتها التي تتحدث عن موقف بني إسرائيل الموغل في الوثنية والشرك ـ إلى قبس من عطائها على صعيد السلوك اليهودي، حيث أجاب موسى عليه السلام، عما أعجله عن قومه، وأنه كان طلباً لمزيد الرضى من مولاه عز وجل، وحيث أعلمه الله جل شأنه أن قومه فُتنوا من بعده وأضلهم السامري، بأن صنع لهم عجلاً جسداً له خوار عبدوه من دون الله، ناهيك عن إخلافهم الموعد الذي ضربوه معه عليه السلام، وتركهم المجيء بعده.

وكان آخر ما وقفتنا عليه الآيات، ما نطقت به الآية الأخيرة من رجوع موسى غضبان أسفاً على قومه بعد أعلمه الله بصنيعهم، وتطلعهم الهابط إلى كل ما هو ضلال وعتو عن أمر الله. وكان من تأنيبه الشديد لهم قوله ـ كما جاء في الآية الكريمة ـ: ﴿ **يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي** ﴾.

ونتابع الرحلة مع الآيات التي تتحدث عن هذا الموقف من بني إسرائيل في سورة طه، وعلى النسق الذي استضأنا به، ونحن نسعد باصطحاب نظائرها من سورة الأعراف، لنرى قيمة العذر الذي تعللوا به لانحرافهم المخزي، وموقفهم من تذكير هارون عليه السلام إياهم، بأن

ربهم الرحمن وأن عليهم أن يطيعوه ويتبعوا أمره، حيث أصروا على أن يظلُّوا عاكفين على معبودهم الجديد حتى يرجع إليهم موسى... ثم ما دار من الحوار بين موسى وهارون عليهما السلام، وما صرح به السامري بشأن صنيعه الذي جرَّ إليه بني إسرائيل.

ولننظر في الآيات الكريمات بدءاً من الآية السابعة والثمانين حيث يقول الله جل ثناؤه: ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾﴾ [طه: ٨٧ – ٨٨].

إنهم يقولون لموسى، معتذرين عن إخلافهم الموعد باللحاق به وعكوفهم على عبادة العجل: ما أخلفنا موعدك بقدرتنا واختيارنا، ولكنَّ ما حصل؛ كان من السامري الذي صاغ من الحلي عجلاً جسداً له صوت يسمع، حيث انقلب كذلك، بسبب التراب الذي كان قبضه من أثر جبريل، فقال السامري وأتباعه من أولئك الضُّلال الذي افتتنوا بالعجل وعبدوه: هذا إلهكم وإله موسى، فنسي موسى ربه هنا وذهب يتطلبه.

أرأيت إلى هذا العذر البارد، والقولة المنكرة المستقبحة!! أين الإيمان بالله؟ واليقين بأنه رب كل شيء ومليكه، وأنه هو الخالق الحي القيوم الذي لا يجوز أن تعنوا الوجوه إلا له؟ من أجل هذا بيَّن سبحانه قُبْحَ اعتذارهم بما اعتذروا به، فقال رداً عليهم، وتفزيعاً لهم وبياناً لفضيحتهم أنفسهم، وسخافة عقولهم فيما ذهبوا إليه من التعلُّل الهابط، الذي يتنافى كل التنافي مع الدليل الساطع والحق الصراح، أجل، قال سبحانه رداً عليهم:

﴿أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا﴾ وهذا يذكرنا بما جاء في سورة الأعراف من قوله جل ثناؤه: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأعراف: ١٤٨].

والحق أن الذي يؤكد إصرارهم على استحسان ما غمرتهم به الفتنة العمياء، من عبادة ذلك العجل الذي صنعه لهم السامري، موقفهم من نصح هارون عليه السلام، وتذكيره إياهم بأنهم قد فتنوا بهذا المعبود، وأن ربهم الرحمن، ولا معبود بحق سواه جل شأنه. لقد أمرهم ونهاهم وذكرهم ـ وله عليهم واجب الطاعة إذ أنه يذكرهم بكلمة الله ـ ولكن كان من نتيجة تكليمه إياهم أداءاً للأمانة المنوطة به من الله، وإنفاذاً لوصية أخيه موسى.. كان من نتيجة ذلك، إعلانهم ـ ويا خيبة ما أعلنوا ـ أنهم لن يبرحوا عاكفين على هذا المعبود، الذي اتخذوه من دون الله حتى يرجع إليهم، ذلكم قول الله جل وعزَّ: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿٩١﴾﴾ [طه: ٩٠، ٩١].

ويجيء العتاب من موسى لهارون، ويكشف هارون لموسى عن الحقيقة وأنه ـ والحمد لله ـ كان عند أداء الأمانة، وإنفاذ الوصية على الوجه الذي ينبغي، ففي أعقاب قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ نقرأ قول الله جل ثناؤه بدءاً من الآية الثانية والتسعين: ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ

يَا بْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ [طه: ٩٢ - ٩٤].

ويبدو ـ والله أعلم ـ أن خشية هارون عليه السلام من أن يقول له أخوه إذا تبعه وتركهم: فرَّقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي، كان جزءاً مما اعتذر به هذا النبي الكريم؛ فقد رأينا في سورة الأعراف ـ من قبل ـ ما يعطي التكامل في موضوع الاعتذار، والإحاطة بما لابس موقف القوم المجافي للحق من هارون، إذ كادوا يقتلونه، وعنادهم في الإصرار على الباطل؛ فمما جاء في الآية الخمسين بعد المائة من السورة المومى إليها ـ وقد رأينا ذلك من قبل ـ قول الله تعالى على لسان هارون يخاطب أخاه موسى: **﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾** [الأعراف: ١٥٠].

وهكذا ترى أن هنالك تردياً في حمأة الوثنية، وإصراراً عليه ـ إلا من رحم ربك ـ ووقفة ظالمة من تذكير النبي تصل إلى حد أنهم كادوا يقتلونه، إذ لم يكتف هؤلاء المغضوب عليهم بالمخالفة والعناد والإصرار على ما فتنوا به من عبادة العجل، وعدم الامتثال لنبيهم في أمره ونهيه، بل كادوا يجعلون من إنهاء حياته، آخر لون من ألوان الحوار معه.. وإذا كان هذا مع نبي من أنبيائهم فماذا أنت قائل فيما وراء ذلك؟

أقول بعد هذا: كم تكون أمتنا أمة الإسلام مجافية لمورد القوة، والتفسير الدقيق للتاريخ، حين تغفل عن مثل هذه الحقائق في حياة أولئك الأناسي، وهي تعيش مع اليهود واقعاً هو حلقة في سلسلة من

الأذى، نسيجها من جانبهم وجانب من يشايعونهم محادَّة الله ورسله، والعدوان على الحق حيث كان، ناهيك عن الحرب المعلنة على المسلمين حيناً، والمستخفية الماكرة أحياناً، في كل ميدان من الميادين ـ لا تستثن حقبة من حقب التاريخ ـ وما أسوأ عواقب الغفلة!! ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

obeikandl.com

سوء العاقبة.. ودعوة إلى الاعتبار

ليس من مكرور القول أن نشير إلى أن الاعتبار بالقصة والإفادة مما تعطي من دروس، غرض أساسي من أغراض القصص في القرآن الكريم، كما قال الله تعالى: ﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٦] وكما قال سبحانه: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَاب ﴾.

[يوسف: ١١١]

وإن مما يدعو للتفكر والتذكر والاعتبار بشكل أكثر عمقاً، ما جرىٰ عليه الكتاب المعجز، من العناية عند سياق القصص، بإبراز ما ترتب على عمل ما، أو موقف من المواقف؛ حين وزن التصرفات جميعاً بمعيار الحق.. ما ترتب على ذلك من مثوبة وموعدة بالخير العطاء، إن كان ما حصل، يتحرك في نطاق الاستقامة والاستمساك بالحق، ومن عقوبة ووعيد بسوء المصير، إن كان ما حصل، يتحرك في نطاق الضلال عن سبيل الله، ومظاهرة الباطل على الحق.

قادني إلى التذكير بهذه الحقيقة ـ وهي مشهودة لمن يحسن النظر في سياق القصص القرآني ـ ما كان من تعرية دقيقة لموقف بني إسرائيل الشركي ووعيد شديد عليه، وهو الموقف الذي تمثل في افتتانهم ـ أخزاهم الله ـ بالعجل الذي صنعه السامري وعكوفهم ـ وهارون عليه السلام بين ظهرانَيهم ـ على عبادته من دون الله، ثم ما كان من مماراتهم في الحقيقة وجدلهم بالباطل ليدحضوا به الحق، حتى كادوا يقتلون هارون عليه

السلام الذي أخلص في تنبيههم، وبيَّن لهم طريق الرشد من طريق الغي، وحذَّرهم من الضلال أشد التحذير.

والمتتبع لآي الكتاب بشأن هذه الواقعة التي أريد للمسلمين أن يعتبروا بها، واجد أن التنديد بما حصل، والإيذان الصريح بالعقوبة الصارمة عليه في الدنيا والآخرة، لم يقتصر إبرازهما على القرآن المكي، بل تجاوزه إلى القرآن المدني؛ ففي سورة الأعراف وهي سورة مكية نقرأ في الآية الثانية والخمسين بعد المائة قول الله جل ثناؤه: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾**﴾ [الأعراف: ١٥٢] على أن الآية التي تلي تؤذن بأن باب التوبة مفتوح لمن صدق في العودة إلى الله. والآية الكريمة هي قول الله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾**﴾ [الأعراف: ١٥٣].

أما عن القرآن المدني: فإنا نقع على عدد من الآي في سورتي البقرة والنساء: ففي سورة البقرة نقرأ في الآية الحادية والخمسين قول الله جل ذكره: ﴿**وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾**﴾ [البقرة: ٥١] كما نقرأ في الآية الرابعة والخمسين قوله سبحانه: ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾**﴾ [البقرة: ٥٤]. وتطالعنا الآية الثانية والتسعون من السورة نفسها بقوله جل ذكره: ﴿**وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ**

بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [البقرة: ٩٢] يتلوها قوله سبحانه: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [البقرة: ٩٣].

وننتقل إلى سورة النساء، لنجد الآية الثالثة والخمسين بعد المائة، تنطق بقول الله تبارك وتعالى خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام ـ وهو خطاب يحمل على طريق الدعوة ومشاقها ما يحمل من تسلية وإيناس ـ: ﴿ يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ ﴾[النساء: ١٥٣]

وبعد هذا: لا بد من الإشارة إلى أن العناية التي أعطيت لموضوع انحراف بني إسرائيل بعبادة العجل، وما لابس ذلك من ضلالات، والتي نشهدها على حد سواء في المكي والمدني من الذكر الحكيم كلام رب العالمين.. أن هذه العناية تشي بالأهمية البالغة المعطاة لنظافة الطريق ـ طريق أهل الإيمان في الدعوة إلى الله ـ من شوائب الشرك ومخالفة ما جاء به المرسلون، فضلاً عن الوقوع فيه والعياذ بالله؛ فالجماعة المسلمة ـ وهي تشق طريقها إلى إنشاء المجتمع المسلم وقيادته بشريعة الله ـ حجرُ الزاوية في منهجها الرباني إلى ذلك: التوحيد الخالص، والبعد عن كل ما يتنافى مع العبودية الحقة لله عز وجل في كل شأن من الشؤون، مهما طال الأمد، وتبدلت الظروف وتعددت ألوان الصوارف التي يقيمها وينسج حبائلها

شياطين الإنس والجن. وملاذ المسلمين أبداً كيما يكونوا على الصراط السوي، مؤهلين لمواجهة التحديات في ضوء المنهاج الرباني: إحكام الصلة المتدبرة الواعية بكتاب الله وبيانه من سنة النبي عليه الصلاة والسلام.

هذه واحدة: وفي حديث موصول بما أشرنا إليه في صدر هذه الكلمات من مكانة الاعتبار والتذكر في نطاق الغرض من القصص القرآني، تأتي الثانية، حيث نجد في الكتاب الكريم ما يضع أيدينا على ذلك.

ذلكم ما نقرأ في أعقاب ما جاء بشأن الموقف الشركي الذي اجترحه بنو إسرائيل بعبادة العجل، بعد أن غادرهم موسى إلى المناجاة، وما أحاط ذلك من تصرفات كلها إثم وضلال من مثل خيانة العهد، وعدم الانصياع لتذكير هارون، والإصرار عناداً واستكباراً على الموقف الظالم.. نعم.. ما نقرأ في أعقاب ذلك كله، بدءاً من الآية التاسعة والتسعين من سورة طه، من قول الله جل ثناؤه خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام وهو المؤتمن على البيان: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾﴾ [طه: ٩٩] والذكر هنا هو القرآن الكريم.

فالتذكر والاعتبار تحقيقاً لغرض القصة في القرآن: يضمن ـ بعون الله ـ الطريق الواضحة التي يتجنب أصحابها ما وقع فيه الآخرون من زلل وانحراف. والمعتصم الأول هو الفرقان ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ والمعرض عن القرآن بترك تدبره والعمل به، موقع نفسه في الهلاك لا محالة، وذلك نجده في الآية التي تلي وهي قوله تعالى: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً ﴿١٠١﴾﴾.

[طه: ١٠٠ – ١٠١].

وواضح أن الضمير في (عنه) عائد إلى الذكر وهو القرآن، والوعيد يشمل الفرد والجماعة، إذ إن (مَنْ) في قوله تعالى: ﴿مَنْ أَعْرَضَ﴾ تفيد العموم لأنها من أدواته، لهذا نرى أنه بعد أن جاء الضمير بالمفرد في قوله جل شأنه: ﴿فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ جاء التصريح بالجمع في قوله سبحانه بعدها: ﴿خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً﴾.

اللَّهم اهدنا سواء السبيل، وارزقنا حسن الاعتبار بما ورد في شأن أعداء الله، وضوابط الموالاة والمعاداة في كتابك الكريم وسنة نبيك المصطفى عليه الصلاة والسلام؛ فما من عاقل يرتاب في أن ذلك واحد من الأسلحة التي ما بد من توافرها بين يدي المعركة الفاصلة، والله المستعان، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

obeikandl.com

وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم

أشرت سابقاً إلى أن مما يؤكد الأهمية المعطاة للتذكر والاعتبار بالقصة القرآنية، في إطار الغرض من إيراد القصص عموماً في كتاب الله الكريم، ما يقترن بالعمل الخيِّر، من مثوبة ووعد حسن، وما يقترن بعكسه، من عقوبة ووعيد. وعلى هذا السنن؛ كان ما صاحب التعرية الدقيقة لما حصل من بني إسرائيل ـ بعد أن غادرهم موسى إلى المناجاة ـ من عبادة العجل، وما اجترحوا من سلوكٍ مداره الإثم والضلال.. على هذا السنن، كان ما صاحب تلك التعرية من تنديد بذلك الموقف وما اقترن به، ومن إنذار بالعقوبة في الدنيا والآخرة، وذلك ضمن آيات كريمات نجدها في مدني القرآن كما نجدها في مكيِّه، على شيء من التفاوت في الأسلوب الذي يدل على حكمة الله في إيراد الواقعة، أو الإشارة إليها على أكمل ما يكون التناسق مع محور الهداية في الكتاب العزيز.

وبعض هذه الآيات، اقتصر من قريب على ذكره. وموعدنا في الصفحات القادمات، وقفة يسيرة عند كل منها، تسعف ـ قدر المستطاع ـ في تجلية القضية المشار إليها، كما تكشف عن ثقل الأمانة الملقاة على عاتق الأمة المحمدية في التذكر العميق، والتدبر الواعي لما عوقب به أولئك الفئام من بني إسرائيل، يوم حادوا عن الصراط السوي، واستبدلوا الضلالة العمياء والجهالة الجهلاء، بهدىٰ الله وما جاء به المرسلون. والآيات التي نلمح إليها هي ما جاء في سورة الأعراف وهي سورة مكية، وما جاء في سورتين مدنيتين هما: سورة البقرة وسورة النساء.

ونبدأ بما جاء في سورة الأعراف من قول الله تبارك وتعالى في الآية الثانية والخمسين بعد المائة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾[الأعراف: ١٥٢].

هكذا نجد الآية الكريمة، صريحة في التنديد بالذين اتخذوا العجل إلهاً يعبدونه من دون الله، وأن جزاءهم على ذلك عقوبتان هما غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا؛ فإنهم لم يتخذوا العجل معبوداً من دون الله فحسب، بل افتروا على الله الكذب زاعمين أن هذا العجل هو إلههم وإله موسى، وأن موسى نسي إلهه وتركه عند ذهابه إلى المناجاة ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾﴾. [طه: ٨٨].

أما الغضب الذي نال بني إسرائيل في تلك الضلالة العمياء عبادة العجل: فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة، حتى قتل بعضهم بعضاً كما جاء في سورة البقرة من قول الله جل ثناؤه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾ [البقرة: ٥٤].

وأما الذلة: فما أعقبهم ذلك من الهوان والصغار في الحياة الدنيا. وهذا مشهود عبر التاريخ ومشهور. أما ما هم عليه الآن من تعالٍ وغطرسة: فينطبق عليه قول الشاعر: «خلا لك الجو فبيضي واصفري».

وأنت ترى كأن العقوبة الأولى، كان من لازمها العقوبة الثانية، فغضبُ الله عليهم، بأن لم يقبل لهم توبة إلا بأن يقتل بعضهم بعضاً؛

كان هوانا لهم وصغاراً تمرغوا في حمأته وذلة أذلهم الله بها في الدنيا. قال الإمام الطبري – رحمه الله –: (فكان أمر الله إياهم بما أمرهم به من قتل بعضهم أنفس بعض عن غضب منه عليهم بعبادتهم العجل. فكان قتل بعضهم بعضاً هواناً لهم وذلة أذلهم الله بها في الحياة الدنيا. ولما كان عملهم افتراءاً على الله إذ كذبوا عليه، وأقروا بألوهية غيره وعبدوا وثناً من دونه زاعمين أنه هو إلههم وإله موسى عليه السلام، فقد ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾).

وفي هذا تذكير أيُّ تذكير للجماعة المسلمة أن تقع ـ لا قدر الله ـ بشيء مما وقع به أولئك الأناسي من بني إسرائيل. فكما جزى هؤلاء الذين اتخذوا العجل إلهاً؛ من إحلال الغضب بهم، والإذلال في الحياة الدنيا على كفرهم بربهم، وردتهم عن دينهم بعد إيمانهم بالله، كذلك يجزي كل من افترى على الله الكذب، فكذب عليه، وأقر بألوهية غيره وعبد شيئاً سواه من الأوثان ـ مهما كان لونها وحقيقتها ـ بعد إقراره بوحدانية الله، وبعد إيمانه به وبأنبيائه ورسله. ومنجاته من ذلك أن يتوب عن غيِّه توبة نصوحاً كما أمره ربه سبحانه، ذلكم قوله تعالى في الآية التي تلي: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأعراف: ١٥٣].

وبعد هذا الذي رأينا من مكي القرآن في سورة الأعراف ـ وقد نزل في أعقاب الكلام على صنيع اليهود في عبادة العجل وما صحب ذلك من المآثم ـ ننتقل إلى تلكم الآيات المدنية التي نقع عليها ـ كما ذكرنا آنفاً ـ في سورتي البقرة والنساء.

ففي الآية الحادية والخمسين من سورة البقرة، يطالعنا التنديد بضلال بني إسرائيل في عبادة العجل، الذي اتخذوه بعد الذي أنعم الله عليهم بمواعدة موسى أربعين ليلة، والحكم عليهم بأنهم ظالمون. ذلكم قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾** ﴾ [البقرة: ٥١] نعوذ بالله من المقت. لقد ظلموا أنفسهم بما سلكوا من سبيل الغضب والذلة، وظلموا الحقيقة بما افتروا على الله وتجاوزوا الحق إلى الباطل، والهدى إلى الضلال.

أما الآية الرابعة والخمسون من السورة نفسها ـ وقد أشرنا إليها من قريب ـ: فتكشف عن الطريق التي أمرهم الله بسلوكها، كي يتوب عليهم من ظلم أنفسهم بما وقعوا فيه من تلك المهواة المنكرة. والآية الكريمة هي قول الله تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾** ﴾ [البقرة: ٥٤].

ولا تطول بنا الرحلة، حتى نقع على لون آخر من التنديد، وذلك بالكشف عن أن بني إسرائيل اتخذوا العجل من بعد ما جاءهم موسى بالبينات وذلك من أعتى أنواع الضلال، إذ ليس لهم عذر بعد تلك البينات فيما ولغوا فيه من الإثم حين عبدوا ـ بعد أن غادرهم موسى إلى الطور ـ عجلاً جسداً له خوار لا يرجع إليهم قولاً ولا يهديهم سبيلاً. ومن هنا كانوا بحق ضلالاً ظالمين. نقرأ في ذلك ما جاء في الآية الثانية والتسعين من قول الله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾** ﴾ [البقرة: ٩٢].

وفي تقريع بالغ الشدة يكشف عن خيانة العهد وكفران النعم، وعن أن هؤلاء القوم، ديدُنهم أن يقولوا: سمعنا وعصينا، وأن حب العجل قد خالط حبات قلوبهم، كما يخالط الشراب؛ فهم واقعون في التناقض بدعواهم الإيمان بالتوراة وعبادتهم العجل.. في تقريع على هذه الشاكلة، نقرأ في الآية التي تلي قول الله جل ذكره: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [البقرة: ٩٣].

حتى إذا غادرنا سورة البقرة إلى الآية الثالثة والخمسين بعد المائة من سورة النساء وجدنا الكلمة القرآنية تضيء للنبي ﷺ طريقه في مواجهة أهل الكتاب، وهو يدعو إلى الله، وتسليه بأن ما يسأله أهل الكتاب ـ وبخاصة اليهود ـ من أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، قد سأل من يُنسبون إليهم ما هو أكبر من ذلك؛ وهو قولهم: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ فأخذتهم الصاعقة بظلمهم، ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات.. فليس جديداً ما يواجهونه به من المكر والحيلة ومحاولة التعجيز. ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾﴾ [النساء: ١٥٣].

وإني داع ـ ونحن نعاني ما نعاني، من مرض الغفلة في تعاملنا مع اليهود وأعوانهم، والانصراف عن اللغة المناسبة المنتجة، كما فعل رسولنا عليه الصلاة والسلام: اللَّهم اجعلنا من الذين إذا ذكِّروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً..

التجرؤ على رب العالمين.. والجزاء

- ١ -

ذكّرت غير مرة بما للحديث في القرآن الكريم ـ والمكي منه بخاصة ـ عن بني إسرائيل، وتعرية مواقفهم الضالة سواء منها ما يتصل بالعقيدة، أو ما يتصل بالسلوك، ودعوة المسلمين إلى التذكر والاعتبار بما حصل لهم بسبب زيغهم وانحرافهم؛ من بالغ الدلالة على أهمية ذلك في تلك الحقبة المبكرة من عمر الدعوة، والذي يعطي ـ فيما يعطي ـ أن المسلك الموسوم بالانحراف المتأصل في النفوس، هو الذي ينتظم أجيال اليهود المتعاقبة دونما استثناء، وأن على المسلمين أن يكونوا أبداً على علم بذلك وذُكر منه من أول الطريق، فقد كشف لهم القرآن عن كثير من المعلومات البالغة الأهمية على هذه الساحة ـ وهم ما يزالون في العهد المكي فئة مستضعفة في مواجهة أهل الشرك ـ ولما هاجروا إلى المدينة حيث أصبح قياد المجتمع بأيديهم، وحيث أصبح اليهود طرفاً حاقداً له دعاواه العريضة في مرحلة الصراع.

وفي سياق الحديث عن ذلك من قبل، مثّلت بآيات من سورتين مكيتين هما سورة الأعراف وسورة طه، حيث وقفنا على موقفين ظالمين من مواقف بني إسرائيل يتصلان اتصالاً مباشراً بالعقيدة، ناهيك عن التناقض الصارخ بين الدعوة والسلوك أولهما: طلبهم من موسى عليه

السلام بعد أن جاوز الله بهم البحر ورأوا قوماً يعكفون على أصنام لهم، أن يجعل لهم إلهاً كما لهم آلهة ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [الأعراف: ١٣٨ - ١٣٩].

ثاني الموقفين: اتخاذهم ـ إبان ذهاب موسى عليه السلام إلى المناجاة ـ عجلاً جسداً له خوار معبوداً من دون الله، وعصيانهم هارون عليه السلام، إذ لم يستجيبوا له فيما أمرهم به وما نهاهم عنه، بل لجوا في طغيانهم حتى كادوا يقتلونه، كما نرىٰ في سورة الأعراف.

وفي الموضع نفسه نقرأ في سورة طه، ما يكشف عن أن السامري هو الذي جرهم إلى فتنة العجل، وأن هارون أدى واجبه كاملاً غير منقوص، ولكنهم هم الذين أصروا على التمسك بالطريق الضالة التي سلكوها معرضين كليا عن أي من كلمات الهداية والخير.

ونعود إلى سورة الأعراف، لنرى صورة أخرى من عمى القلوب على ساحة الباطل المستهتر، تصدر عن بني إسرائيل بعد كل الذي جرى، لتكون حلقة في تلك السلسلة العفنة من أفاعيلهم وسوء صنيعهم على صعيدي العقيدة والسلوك. والصورة التي أعنيها هي تهديدهم موسى عليه السلام ـ بعد أن أيقنوا بأن الله يكلمه ـ بأنهم لن يؤمنوا له حتى يريهم الله جهرة، وهو مطلب يعبر عما في النفوس من الشك الفاضح والاضطراب.

ففي الآية الخامسة والخمسين بعد المائة من هذه السورة نقرأ قول الله تباركت أسماؤه: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأعراف: ١٥٥].

تخبرنا الآية الكريمة أن موسى عليه السلام اختار من قومه سبعين رجلاً لميقات وقّته له ربه، ثم ذهب بهم إليه ليعتذروا ـ كما يقول العلماء ـ عن عبادة العجل، فلما أتوا المكان المحدد لذلك، وأيقنوا أن الله يكلم موسى عليه السلام، ما كان منهم إلا أن نطقوا بكلمة الضلالة مستهترين، فقالوا: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فأخذتهم الصاعقة، وهي المراد بالرجفة في الآية التي نحوّم حولها. فلما أخذتهم الصاعقة، ماتوا. فقام موسى عليه السلام يبكي ويدعو الله فكان مما قاله: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾ أخرج الإمام الطبري بسنده عن السدي قال: (إن الله أمر موسى عليه السلام أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل، يعتذرون إليه من عبادة العجل، ووعدهم موعداً، فاختار موسى قومه سبعين رجلاً على عينه، ثم ذهب بهم ليعتذروا. فلما أتوا ذلك المكان قالوا: لن نؤمن لك يا موسى حتى نرى الله جهرة، فإنك قد كلمته فأرناه! فأخذتهم الصاعقة، فماتوا، فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول: «رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم، لو شئت أهلكتهم من قبلُ وإياي»).

هكذا فعلوا، بعد أن أيقنوا بأن الله يكلِّم نبيهم موسى، فبدل أن يزدادوا إيماناً، ويكون منهم تذوق لحلاوة هذا الإيمان، تحولوا إلى النقيض فقالوا لموسى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥].

والذي يثير الدهشة، أن عدداً من الروايات، ومنها الرواية التي أثبتنا عن السدي، تصرح بأن الذين فعلوا ذلك هم خيارهم؛ لأنهم هم السبعون الذين اختارهم موسى عليه السلام، الأمر الذي يدل على أن سوء الطوية هو الأصل عند هؤلاء الناس، وعندما يطالبون بالدليل، ويتظاهرون بالمزيد من الرغبة في إعمال العقل، يكون ذلك صورة فاضحة من صور التعنت والرغبة في المراء، وإلا: فأين الذي حصل من تشوفهم إلى صنم يعكفون عليه تقليداً لمن رأوهم يفعلون ذلك، بعد أن أنقذهم الله من فرعون وشيعته، وجاوز بهم البحر؟ أين هذا من الإيمان وفعل المؤمنين، بل أين تقع عبادتهم العجلَ؛ من دعوىٰ الإيمان والأدلة الناطقة بوجود الله وحكمته وقدرته؟؟.

وأخيراً وليس آخراً: كيف نعلّل صنيعهم الباطل الذي يتمثل بقولهم لموسى بعد أن أيقنوا أن ربه يكلمه: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾. وهذه من يقولها؟ يقولها السبعون الذين اختارهم موسى..

حقا إنه التعنت الذي لا تعنت بعده، والعناد الذي لا يدانيه عناد، مع الدعوى العريضة بأنهم أهل التوراة وأهل الإيمان.

وقد حرص القرآن على تنبيه المسلمين على أن ما يصنعه اليهود في عصر النبي عليه الصلاة والسلام حلقة في سلسلة ما صنعه أسلافهم من

قبل. أليس ذلك درساً بالغ الخطورة لأمتنا في كل عصر، كيما تحسن التعامل مع مدهم أحفاد أولئك الأجداد، فلا فرق؟! ولكن تختلف الأساليب، فتأخذ حِذرها وتكون على الجادة في حياتها، آخذة الكتاب بقوة، محسنة التنهيج وإحكام خطوات التنفيذ على صعيد العلاقة بأعداء الله ظلمة الحق والإنسان؟

obeikandl.com

التجرؤ على رب العالمين.. والجزاء

- ٢ -

كانت لنا فيما سبق وقفة عجلى عند واحد من مواقف بني إسرائيل الضالة التي لها شديد الصلة بالعقيدة والسلوك. وهي وقفة هدى إليها قبس من عطاء الآية الخامسة والخمسين بعد المائة من سورة الأعراف المكية، فقد دلت الآية فيما دلت ـ والقرآن يفسر بعضه بعضاً ـ على أن موسى عليه السلام اختار من قومه سبعين رجلاً على عينه، ليقوموا بأمر جلل، هو الاعتذار إلى الله تبارك وتعالى من عبادة العجل. ولما أتوا المكان الموعود، وكلّم موسى ربه سبحانه، زاغوا عن الحق، وهددوا موسى بأنهم لن يؤمنوا له حتى يروا الله عياناً علانية، وذلك ما عبروا عنه بقولهم: (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فإنك قد كلمته فأرناه) ولما نطقوا بكلمة السوء هذه، أخذتهم الرجفة ـ وهي الصاعقة ـ جزاء ظلمهم، وما أكثر ما كانوا يظلمون، فقام موسى يبكي ويدعو الله تبارك وتعالى.

والآية الكريمة التي أعنيها هي قول الله جل ثناؤه: ﴿**وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾**﴾ [الأعراف: ١٥٥].

وقد أشرت فيما سبق إلى أن صدور ما صدر عن هؤلاء الذين اختارهم موسى، أمر يستوقف الناقد المتبصِّر، لأنه اختارهم على عينه للقيام

بالاعتذار، إذ دلالة ذلك، أن الأخيار من بني إسرائيل، كان عندهم هذا الاستعداد للزيغ الذي يتنافى مع أبسط قضايا الإيمان، وهذا واضح فيما نقل الطبري عن السدي رحمهما الله. يؤكد هذه الرواية، وما روى شيخ المفسرين أيضاً عن محمد بن إسحق أن موسى عليه السلام، سلك في طريقة الانتقاء، أن اختار السبعين الخيِّر فالخيِّر وقال: انطلقوا إلى الله فتوبوا مما صنعتم، واسألوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، وصوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم، فخرج بهم إلى طور سيْناء، لميقات وقَّته له ربه.

وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم. فقال السبعون ـ فيما ذكر لي ـ حين صنعوا ما أمرهم به، وخرجوا معه للقاء ربه، لموسى: اطلب لنا نسمع كلام ربنا! فقال: أفعل: فلما دنا موسى من الجبل، وقع عليه عمود الغمام، حتى تغشَّى الجبَلَ كله، ودنا موسى فدخل فيه، وقال للقوم: ادنوا، وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه، فضرب دونه بالحجاب ودنا القوم، حتى إذا دخلوا في الغمام، وقعوا سجوداً، فسمعوه وهو يكلم موسى، يأمره وينهاه، افعل ولا تفعل!! فلما فرغ الله من أمره انكشف عن موسى الغمام، فأقبل إليهم، فقالوا لموسى: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فأخذتهم الرجفة ـ وهي الصاعقة ـ فافتُلتت أرواحهم، فماتوا جميعاً، وقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه، ويقول: لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي، قد سفهوا، أفتهلك من ورائي من بني إسرائيل).

هذا: ويبدو أن تعميق حسّ المسلمين بما جبل عليه اليهود من انحراف، وتطلع إلى كل ما هو زيغ وعدوان على مقتضيات الإيمان، كان لا بد له من تعدد المواطن التي تذكر فيها هذه الحقيقة، على الأسلوب المعجز الذي اقتضته حكمة الله، فلم يقتصر في الحديث عما نطقت به أفواه القوم من كلمة الضلال: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ خطاباً لموسى، على القرآن المكي، ولكن جاء ذلك أيضاً في القرآن المدني، حيث المسلمون على خط المواجهة مع اليهود الذي يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنهم الشعب المختار قرباً إلى الله من بين الشعوب.

فما رأيناه مجملاً في أمر الكلمة المشار إليها، والتي خرجت من أفواههم تهديداً لموسى عليه السلام، وكشفت عن دخيلة نفوسهم، نرى النص عليه مفصلاً في سورتي البقرة والنساء، مع ما يرى من تفصيل في سورة الأعراف لواقعتي الاختيار ودعاء موسى عليه السلام.

يتضح ذلك بما نقرأ في الآية الخامسة والخمسين من سورة البقرة من قول الله جل ثناؤه: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [البقرة: ٥٥].

ومعنى الآية ـ كما نرى ـ واذكروا إذ قلتم يا موسى لن نصدقك ولن نقر بما جئتنا به، حتى نرى الله جهرة ـ عياناً علانية برفع الساتر بيننا وبينه، وكشف الغطاء دوننا ودونه، حتى ننظر إليه بأبصارنا ـ فقد ورد عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال ﴿حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ قال: علانية، وروي عن الربيع وقتادة: ﴿حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ عياناً. وعن ابن زيد: ﴿حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ حتى يطلع إلينا.

ونقرأ في الآية الثالثة والخمسين بعد المائة من سورة النساء قول الله تعالى: ﴿ يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ ﴾.

[النساء: ١٥٣].

لقد كان من تعنت اليهود: أن سألوا رسول الله ﷺ أن يسأل ربه أن ينزل عليهم كتاباً مكتوباً من السماء، آية معجزة يعجز جميع الخلق عن أن يأتوا بمثلها شاهدة له عليه الصلاة والسلام بالصدق، آمرة لهم باتباعه. وفيما ورد عن السدي ومحمد بن كعب القرظي، ما يرجح أن هذا هو سبب نزول الآية، ورأى الطبري أنه أولى الأقوال بالصواب، وتابعه على ذلك كثيرون.

هكذا سأل اليهود محمداً ﷺ ما سألوه تعنتاً، وفراراً من الإيمان به، فجاء التوبيخ والتقريع من الله عز وجل لهم في مسألته إياه ذلك، وحملت الكلمة القرآنية تسلية النبي ﷺ عن صنيعهم في عصره، بفعل أسلافهم وأجدادهم القدماء. ﴿ يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴾.

فلئن سألك هؤلاء أن تنزل عليهم كتاباً مكتوباً من السماء، كي يصدقوك.. فإنهم لن يؤمنوا لو جئتهم بذلك، ولسوف يخالفون أمر الله كما خالفه أسلافهم بعد كل ما رأوا من الآيات؛ فقد سأل أسلاف هؤلاء اليهود وأوائلهم، موسى عليه السلام أعظم مما سألوك، من تنزيل كتاب عليهم من السماء، فقالوا له: أرنا الله جهرة أي عياناً نُعاينهُ وننظر إليه.

وهكذا جاء التصريح بقصتهم مع موسى عليه السلام وقولهم: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾، لكيلا يكون تعنت اليهود في عصره عليه السلام، أمراً مستهجناً عنده، ولا مدعاة للأسى؛ فذلك ديدن الأجداد قبل الأحفاد، بل إن الأسلاف قد سألوا موسى أكبر مما سأل هؤلاء اليهود المعاصرون. والتسلية عن صنيع الأحفاد بما صنع أسلافهم من قرون وقرون، لها دلالتها في توعية المسلمين اليوم، وتنبيههم على حقيقة هؤلاء الناس المعاصر منهم ومن تدحرج في التاريخ قبل قرون وقرون، لكيلا تشتبه عليهم الأمور، ويلبس الحق بالباطل؛ فاليهود هم اليهود، وأعداء الأمس هم أعداء اليوم. وبواعث الحقد والرغبة في الأذى دائماً في ازدياد. يعينهم على ذلك اهتزاز وجودنا الذاتي، ورفدهم بمعاونة آخرين وآخرين!!.

اللَّهم ارزقنا عميق التدبر، وصادق الاعتبار.. فما أشبه الليلة بالبارحة!!

للذين يتبعون الرسول النبي الأمي

- ١ -

من وقائع السلوك المنحرف عند اليهود والتي عرض لها القرآن المكي ـ كما أشرت سابقاً ـ ليكون المسلمون ـ والله أعلم ـ على وضوح في الرؤية ـ وهم يحملون دعوة الله ويصارعون الوثنية والطغيان ـ.. من هذه الوقائع: ما حصل من أولئك الذين اختارهم موسى على عينه ـ وكانوا سبعين رجلاً ـ كي يدعوا الله ويتوبوا إليه مما حصل من عبادة العجل؛ إذ قالوا بعد أن سمعوا كلام الله وهو يأمر موسى وينهاه: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فأخذتهم الصاعقة بصنيعهم هذا.

وأعقب ذلك أن قام موسى عليه السلام يبكي ويدعو الله ويقول: رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم.

والسورة المكية التي عرضت لهذه الواقعة هي سورة الأعراف إذ نقرأ في الآية الخامسة والخمسين بعد المائة قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأعراف: ١٥٥].

وما جاء في دعاء موسى من قوله: إن هي إلا فتنتك: أي ابتلاؤك

واختبارك وامتحانك، وقد روي هذا التفسير عن ابن عباس وسعيد بن جبير وأبي العالية وربيع بن أنس، وغير واحد من علماء السلف والخلف. قال الحافظ ابن كثير: ولا معنى له غير ذلك، يقول إن الأمر إلا أمرك، وإن الحكم إلا لك، فما شئت كان، تضل من تشاء، وتهدي من تشاء، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، فالملك كله لك، والحكم كله لك، لك الخلق والأمر.

ولئن كانت هذه الآية المكية، لم تصرح بما اجترحوه ـ من قولهم: أرنا الله جهرة ـ واقتصرت على ذكر أن الرجفة أخذتهم، إن التصريح بذلك جاء في القرآن المدني ـ ولله الحكمة البالغة في الإجمال هنا والتفصيل هناك. ذلكم ما نقرأ في الآية الخامسة والخمسين من سورة البقرة من قول الله جلت حكمته خطاباً لليهود: ﴿ **وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾** ﴾.

ويرد هذا التصريح في سورة النساء أيضاً، حيث نقرأ في الآية الثالثة والخمسين بعد المائة قول الله تباركت أسماؤه: ﴿ **يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾** ﴾ [النساء: ١٥٣].

وأنت واجد أن الله تبارك وتعالى، قد شاء بحكمته أن ينبه المسلمين منذ العهد المكي، على أن الهالة التي أحاط بها اليهود أنفسهم، من كونهم أكثر الناس فهما وإدراكاً، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، والمنتفعون

برسالة السماء ـ كما كان يشاع في جزيرة العرب ـ كل أولئك لا يرقى بهم إلى أن يكونوا في منزلة الرضى عند الله عز وجل، لما أنهم ظلموا وطغوا وبغوا، وناصبوا رسل الله العداء، وكانوا على الخط العدواني في مواجهة الحق أبداً، بل انحطوا بسبب انحرافاتهم، إلى أن يكونوا في الدرك الأسفل من غضب الله وعقابه فباؤوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين.

أما المؤهلون لمنزلة الرضا عند الله عز وجل والمكانة السامية في العالمين: فهم المسلمون الذين يسلمون وجوههم لله على المنهج الأوفى، فيتبعون الرسول النبي الأمي محمداً عليه الصلاة والسلام، ولا يحيدون ولا يظلمون، حيث تكون فعالهم صورة صادقة لدعاواهم وأقوالهم على ساحة الإيمان والعمل والجهاد، لا كما فعل اليهود إذ كانوا على تناقض صارخ، بين دعواهم الإيمان، وبين سلوكهم المخزي في الماضي والحاضر، كما كشفت عن ذلك آيات الكتاب الكريم، ونصوص السنة النبوية المطهرة. يصحب ذلك الواقع الذي لا يبخل بالشهادة والتأييد.

إنها قضية كبرى، يوجه القرآن الكريم منذ العهد المكي إلى تبيُّنها، وإدراك أبعادها على طريق الدعوة الميمونة والمنهج والهدف.. الدعوة التي يراد لها أن تنتصر، وأن تتجاوز حدود الجزيرة إلى الناس جميعاً.. نعم.. يوجه إليها القرآن الكريم من أول الطريق لأن اليهود هم اليهود، وإن كانت المعركة لم تظهر ملامحها الكاملة إلا بعد الهجرة، وهذا التبكير في تنبيه المسلمين وهم ما يزالون فئة قليلة مستضعفة في مكة، لا ريب في دلالته على أن هذا الكتاب العزيز من عند الله.

ها هي سورة الأعراف المكية، تضع أيدينا على القضية المشار إليها ـ على صورة بالغة الدقة والوضوح. وقد جاء ذلك في أعقاب دعاء موسى عليه السلام الذي دعا به مناجياً مولاه بعد أن أخذت الصاعقة أولئك الذين اختارهم لميقات ربه سبحانه. والآيات في ذلك هي قول الله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٥ ـ ١٥٧] ثم قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: ١٥٨].

أما بعد: أليس في عرض القضية المشار إليها على هذه الصورة الجلية في العهد المكي ـ والمسلمون قلّة مستضعفون ـ ما يوجب على هذه الأمة أن تكون على المحجة، وعياً لها وإدراكاً لأبعاد ذلك، والعمل بمقتضاه؟ أجل لا بد من ذلك، كيما تسقط الأقنعة، وتظهر الحقيقة جلية، لا

يتغشاها المكر المبطّن، والتمويه الزائف على ساحة الصراع مع من حلت عليهم اللعنة وباؤوا بغضب على غضب، فاليهود السابقون واليهود اللاحقون سواء، وليس ثمة مفارقة بين هؤلاء وأولئك إلا في اختلاف أحقاب الزمان.

وهنالك يمكن - بعون الله - تجاوز واعٍ قوي للواقع الأليم، إلى واقع يحمل الخير والعزة الإيمانية والتمكين، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾﴾ [النور: ٤٤].

obeikandl.com

للذين يتبعون الرسول النبي الأمي

- ٢ -

أشرت من قريب إشارة سريعة إلى قضية كبرى وجّه إلى الانتفاع بدلالتها وإدراك أبعادها القرآن الكريم في العهد المكي، تلك القضية هي أن منزلة الرضى عند الله عز وجل، والمكانة القائمة على الحق في العالمين، هي لأولئك الذين يتبعون النبي محمداً عليه الصلاة والسلام، يعزرونه وينصرونه ويستقيمون على المنهج الذي سلكه بهم، فتراهم في سلوكهم على كل صعيد، صورة حية صادقة لما آمنوا به وأعطوا المواثيق من أنفسهم على العمل بمقتضاه.. وهذا ما يجعلهم أهلاً لرحمته وعطائه. وما داموا على تلك الاستقامة، فلهم الخير والعزة والتمكين.

أما أولئك اليهود، الذين يشهد سلوكهم أبداً بالتناقض الصارخ بين دعواهم الإيمان برسالة السماء، وبين أعمالهم وتصرفاتهم على كل صعيد: فليسوا من ذلك في شيء، بل باؤوا بانحرافهم وظلمهم بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين.

ولقد جاءت هذه الحقيقة ـ والله أعلم ـ لتبيِّن من هم أهل لرحمة الله ومرضاته، ولتنفي مزاعم اليهود التي كانوا يشيعونها في جزيرة العرب من كونهم أكثر الناس فهماً وثقافة، وإدراكاً، وأنهم المنتفعون حقاً ـ لا سواهم ـ من الدين والكتاب المنزل من عند الله. وكم تعالوا وتغطرسوا

وكان منهم الصلف واحتقار الآخرين بسبب أنهم ـ على حد زعمهم ـ أبناء الله وأحباؤه.

وموطن الكشف عن هذه القضية الكبرىٰ، والتي يبدو إدراكها من قبل المسلمين، ذا أهمية بالغة في الإسهام بتغيير الواقع، ما ورد في سورة الأعراف ـ وهي سورة مكية ـ في آيات كريمات أتينا على ذكرها في صفحات سبقت، وما بد من العودة إليها الآن تجلية للقضية من خلالها إن شاء الله. وتلك الآيات هي قول الله تبارك وتعالى في السورة المشار إليها: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَـذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

ثم قال جل شأنه خطاباً لنبيه عليه الصلاة والسلام، وللأمة من ورائه في بيان لعموم رسالته ووجوب الإيمان به، وأن ذلكم هو طريق الفلاح: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا

﴿إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

هكذا نرى في هذه الآيات أنه بعد دعاء موسى عليه السلام بقوله: أنت وليّنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين، ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]: تبنا ورجعنا، يأتي قول الله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ الآيات.

فرحمة الله الرحيم الرحمن، وسعت كل شيء، كما جاء في الحديث الذي رواه أحمد ومسلم عن سلمان الفارسي – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال: «إن لله عز وجل مائة رحمة فمنها رحمة يتراحم بها الخلق وبها تعطف الوحوش على أولادها وأخر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة» ولم يرض رسول الله ﷺ من ذلك الأعرابي ـ كما ثبت في الحديث الصحيح ـ ما دعا به من قوله: اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً فقال له عليه الصلاة والسلام – كما روى البخاري وغيره –: «لقد تحجرت واسعاً».

ولكن الله تعالى، بعد أن أثبت هذه الحقيقة، حقيقة أن رحمته وسعت كل شيء، أبان سبحانه وتعالى ـ وهو الحكيم الخبير ـ أنه سيكتبها منّة منه وإحساناً لأولئك الذين يتصفون بصفات معينة، مدارها على الإيمان وصدق الاتباع ـ قولاً وعملاً وسلوكا ـ لمحمد عليه الصلاة والسلام فيما جاء به من رسالة الإسلام وحياً من الله عز وجل ولأتباعه

الصادقين. وهذا واضح في قوله جل وعلا: «فسأكتبها» والضمير يعود للرحمة. والصفات التي ذكرت تدل دلالة واضحة على هذا الذي ذكرنا، من أن المقصود أمة محمد عليه الصلاة والسلام؛ فأنت ترى ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ إنهم يتقون الشرك والعظائم من الذنوب ويأخذون أنفسهم بتقوى الله تعالى، ويؤتون الزكاة فيزكون أنفسهم وأموالهم، وتراهم في كل حركة من حركاتهم في هذه الحياة مصدقين بما جاء من عند الله.

ثم جاء التفصيل بعد هذا الإجمال، فأوضحت الآية الثالثة، أن عماد القضية الإسلام واتباع الرسول عليه الصلاة والسلام، وجاء وصفه بالأمية، ليكون آكد في بيان أنه محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧].

أرأيت: بعد الكشف في الآيات السابقات غير مرة عن صنيع اليهود في تطلعهم الدائم إلى الوثنية بل وقوعهم في عبادة غير الله، واحتيالهم الدائب على أحكام الله، يحاولون التفلت منها والعبث بمدلولاتها، بعد هذا كله نقع على هذه المقولة العظمى التي تضع حداً ـ على صعيد الفكر والمعرفة ـ لغطرسة أولئك المدَّعين الذين يخالف سلوكهم دعاواهم

العريضة كل المخالفة، فعذاب الله يصيب به من يشاء. أما رحمته: فهي لأولئك الذين يتبعون الرسول النبي الأمي، فيعملون بمقتضى الرسالة التي بلغها للناس وتراهم لا يتراجعون عن ميدان من الميادين، فيه نصرة هذا النبي الكريم وشد أزره، نصرة للحق وطلباً لمرضاة الله ومرضاة رسوله عليه الصلاة والسلام.

وما على المسلمين اليوم ـ وقد تداعى عليهم الأعداء في الداخل والخارج ـ إلا أن يستأنفوا طريق الوصول إلى تمثل تلك الحقيقة إيماناً وعملاً وسلوكاً، موقنين بنصر الله إن هم نصروه. ولله عاقبة الأمور.

obeikandl.com

أقيموا اليهودي عن أخيكم

مما وقفتنا عليه سورة الأعراف في أعقاب آيات تحدثت عن بني إسرائيل، أنه بعد أن أخذت الرجفة أولئك الذين اختارهم موسى عليه السلام لطلب المغفرة من الله، والعفو عما بدر من عبادة العجل، وقف موسى يدعو ربه قائلاً: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥ - ١٥٦].

وتطلع علينا مقولة مباركة تضع الأيدي على حقيقة ناصعة في شأن أمة محمد عليه الصلاة والسلام؛ فعذاب الله يصيب به من يشاء، ولكن رحمته سيكتبها لأولئك الذين يؤمنون بآيات الله، وتزين سلوكهم تقوى الله، أولئك الذين يتبعون الرسول النبي الأمي محمداً عليه الصلاة والسلام، الذي بشرت به التوراة والإنجيل، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويسير بهم إلى حيث السعادة في الدنيا والآخرة، فيحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم وذلك أثر من آثار رحمة الله التي كتبها لهم، أما العاقبة الموعودة من الله ـ والله لا يخلف وعده ـ لأولئك الذين آمنوا بذلك الرسول وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه: فهي الفلاح في الدنيا ويوم الدين؛ فهم المفلحون أبداً ما داموا على تلك الطريق، إيماناً ونصرة لما جاء به النبي

عليه صلوات الله وسلامه عليه، يدل على ذلك ما جاء بعد قول الله تباركت أسماؤه على لسان موسى عليه السلام: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ قوله جل شأنه: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٦ - ١٥٧].

أرأيت إلى هذا الوضوح فيما خصت به أمة محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾.

أخرج الطبري في تفسيره «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» عن نوف الحميري أنه قال: لما اختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقات ربه قال الله لموسى: أجعل لكم الأرض مسجداً وطهوراً، وأجعل السكينة معكم في بيوتكم، وأجعلكم تقرؤون التوراة عن ظهر قلوبكم، يقرؤها الرجل منكم والمرأة والحر والعبد والصغير والكبير. فقال موسى لقومه: إن الله قد جعل لكم الأرض طهوراً ومسجداً. قالوا: لا نريد أن نصلي إلا في الكنائس! قال: ويجعل السكينة معكم في بيوتكم. قالوا: لا نريد إلا أن تكون كما كانت في التابوت! قال: ويجعلكم تقرؤون التوراة عن ظهر

قلوبكم، ويقرؤها الرجل منكم والمرأة، والحر والعبد، والصغير والكبير قالوا: لا نريد أن نقرأها إلا نظراً! فقال: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ إلى قوله ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

ولقد كانت الآيات التي نحن بصددها ـ شأن القرآن كله ـ محط أنظار المؤتمنين على فهم الكتاب الكريم ونقل دلالاته إلى المسلمين، فأدركوا من خلالها، ما خص الله به هذه الأمة، وما تحمل رسالتها من حقوق وواجبات، الأمر الذي ينبه المسلمين أبداً، أن يكونوا على طريق المعرفة والعمل والجهاد وتحقيق إنسانية الإنسان، وأن لا يقعوا فيما وقعت فيه يهود من المخالفة والجحود، وبذلك يسلم لهم على الدوام ما فضلهم الله به على غيرهم، ويثبتون قولاً وعملاً، أنهم ما يزالون جديرين بذلك، والفضل لله سبحانه أولاً وآخراً، وجزى الله رسولنا النبي الأمي محمداً عليه الصلاة والسلام خير الجزاء وأعلى مقامه في الآخرين.

فعن عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – في قوله تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ أنه قال: أمة محمد ﷺ. وروى الطبري مثل ذلك عن سعيد بن جبير والسدي الذي قال: هؤلاء أمة محمد ﷺ.

وفي بيان المراد بالنبي الأمي في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ وأنه محمد عليه الصلاة والسلام قال قتادة: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ تمنتها اليهود والنصارى، فأنزل الله شرطاً بيناً وثيقاً فقال: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ وهو

نبيكم ﷺ، كان أمياً لا يكتب. أجل إنه الشرط البين الوثيق. من هنا قال شيخ المفسرين أبو جعفر – عليه رحمة الله –: (وهذا القول إبانة من الله جل ثناؤه عن أن الذين وعد موسى نبيه عليه السلام أن يكتب لهم الرحمة التي وصفها جل ثناؤه بقوله ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ هم أمة محمد ﷺ، لأنه لا يُعلم لله رسول وصف بهذه الصفة ـ أعني الأمي ـ غير نبينا محمد ﷺ وبذلك جاءت الروايات عن أهل التأويل).

هذا: والنبي الأمي المقصود في الآية، جاء ذكره وبيان أوصافه والبشارة به في التوراة والإنجيل، وجاءت الآية الكريمة صريحة بذلك فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾ والقوم بعامة، وأحبارهم والرهبانيون فيهم بخاصة، يعلمون ذلك حق العلم، ولكنهم يجحدون بغياً على الحق، وحسداً من عند أنفسهم.

روى الإمام أحمد في مسنده قال: حدثنا إسماعيل عن الحريري عن أبي صخر العُقيلي أنه قال: حدثني رجل من الأعراب قال: «جلبت حلوبة إلى المدينة في حياة رسول الله ﷺ، فلما فرغت من بيعي قلت: لألقين هذا الرجل، فلأسمعن منه، قال: فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشون، فتبعتهم حتى أتوا على رجل من اليهود، ناشرٍ التوراة يقرؤها يعزي بها نفسه عن ابن له في الموت كأجمل الفتيان وأحسنها. فقال رسول الله ﷺ: أنشدك بالذي أنزل التوراة هل تجد في كتابك هذا صفتي ومخرجي؟ فقال برأسه هكذا، أي لا!! فقال ابنه: إي والذي أنزل التوراة

إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك، وإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله. فقال الرسول عليه الصلاة والسلام: أقيموا اليهودي عن أخيكم، ثم تولى كفنه والصلاة عليه» قال الحافظ ابن كثير: هذا حديث جيد قوي له شاهد في الصحيح عن أنس.

سبحان الله!! ناشد الرسول ﷺ اليهودي الأب بالله، فكذب زاعماً أنه لا يجد في التوراة صفة رسول الله ومخرجه، وأشرق في قلب اليهودي الابن المريض نور الهداية، فصدق في بيان الحقيقة، ونطق بالشهادتين، وبذلك أصبح أخاً للمسلمين، وعندما فاضت روحه إلى بارئها، أمر رسول الله ﷺ بتنحية أبيه الكافر عنه «أقيمو اليهوديَّ عن أخيكم».

«أقيموا اليهوديَّ عن أخيكم» وعاها التاريخ، وأصبحت ـ بدلالتها وأبعادها ـ أمانة في أعناق المسلمين.

ألا ليت لهواة التحوُّل عن هذا النبع السلسبيل، عيوناً ترى وقلوباً تعي. وهنيئاً لذلك الشاب ما أكرمه الله به من الصدق والنطق بالكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» حتى أصبح أخاً للمسلمين. هنيئاً له هذا الفضل العظيم، بأن يأمر سيد العالمين بإزاحة أبيه اليهوديِّ الكافر عنه، لأن النسب الحقيقي، قد تبدل بين الأب الذي ظلَّ على يهوديته، وبين الابن الذي أكرمه الله بالإسلام.

وما أعظمه درساً، أن يتولى الرسول صلوات الله وسلامه عليه كفنه والصلاة عليه بعد أن انضم إلى قافلة الهدى والخير، وأصبح في عداد من يكتب الله لهم الرحمة إن شاء الله. إن في ذلك لعبرة لمن يخشى، ونوراً لمن ينصف الحقيقة من نفسه على الدوام.

لا تقولوا مثلهم.. سمعنا وعصينا

أشرت غير مرة فيما مضىٰ من القول، إلى أن الكلام على اليهود في الكتاب والسنة، أخذَ حيِّزًا مرموقاً، كيما تكون الأمة ـ والله أعلم ـ على قدْرٍ من التنبه إلى ما يدفع عنها الأذى، ويعود عليها وعلى الإنسانية بالخير، إن هي تبصرت فيما ورد في هذا الشأن، وعملت على الإفادة منه؛ والحِكَمُ وراء ذلك أيضاً كثيرة وفيرة.

وأود أن أؤكد الآن، ما تعنيه المساحة التي أعطيت للتحذير من تقليد أهل الكتاب بعامة، واليهود بخاصة، من الوقوع في ارتكاب ما ارتكبوه؛ فالناظر في كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام: يطالعه من ذلك الشيء الكثير. جاء ذلك صريحاً في بعض المواطن، ويفهم بالدلالة والفحوى في مواطن أُخر.

وعلى هذا المحور: نقرأ في سورة البقرة بعضاً مما جاء في شأن بني إسرائيل وإعراضهم عن الحق، ومخالفتهم لما جاء به موسى عليه السلام، في خطاب لليهود في عصر النبي ﷺ، حتى كأنهم هم الذين فعلوا ذلك، لأن الطينة واحدة، والمنهج المنحرف واحد، والخَلَفُ راض بصنيع من سلف. نقرأ في هذه السورة المباركة قول الله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا**

﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [البقرة: ٩٢، ٩٣].

هكذا كان موقفهم مما أمروا به ومما نهوا عنه، أمروا أن يأخذوا ما آتاهم الله بقوة ويسمعوا؛ فما كان منهم إلا أن قالوا: سمعنا وعصينا، أجل كان هذا شعارهم في مواجهة أحكام الله، وما جاءهم من موسى عليه الصلاة والسلام.

وفي ضوء ما يؤكده المنهج القرآني، من تحذير الأمة المسلمة، من الوقوع فيما وقع فيه هؤلاء الأناسي: نقع في السنة المطهرة على التحذير من الوقوع فيما وقعوا فيه من قولهم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ وأن الواجب مواجهة ما يأتي عن الله ورسوله ﷺ بقول: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ قولاً وعملاً، دونما تحول عن السلوك المتَّسق مع السمع والطاعة؛ وذلك عنوان الإيمان الصادق الذي لا تشوبه شائبة.

ونظل مع سورة البقرة، لنقرأ في خواتمها قول الله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ [البقرة: ٢٨٤] ففي هذه الآية يخبر الله جل شأنه أن له ملكَ السماوات الأرض وما فيهن وما بينهن، وأنه العليم بما فيهن، لا يُحجَب علمه عن الظواهر، ولا تخفى عليه خافية من السرائر والضمائر، مهما دقَّت وأمعنت في الخفاء، كما أخبر سبحانه أنه سيحاسب عباده على ما فعلوه، وما أخفوه في صدورهم كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي

السَّمَـوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ [آل عمران: ٢٩] وكما قال جل شأنه: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾﴾ [طه: ٧] والآيات في ذلك والأحاديث كثيرة جداً.

وقد أخبر في هذه الآية التي نحن بصددها من سورة البقرة، بما هو زيادة على العلم، وهو المحاسبة على ذلك، وكان تخوُّف الصحابة – رضي الله عنهم – شديداً من هذا؛ فقد ثبت أنه لما نزلت هذه الآية، اشتد ذلك عليهم – رضي الله عنهم –، وخافوا منها، لما تحمله من محاسبةِ الله لهم على جليل الأعمال وحقيرها. ولا يخفى أن هذا من عميق إيمانهم وإيقانهم، ومخافتهم الصادقة من الله عز وجل، قال الإمام أحمد – رحمه الله – في مسنده: حدثنا عفان قال: حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم قال: حدثني أبو عبد الرحمن ـ يعني العلاء ـ عن أبيه عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أنه قال: «لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ اشتد ذلك على أصحاب رسول الله، فأتوا رسول الله ﷺ ثم جثوا على الركب وقالوا: يا رسول الله كُلِّفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية، ولا نطيقها. فقال رسول الله ﷺ: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير. فلما اقترأها القوم وذلَّت بها ألسنتهم، أنزل الله في إثرها ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ...﴾ فلما فعلوا

ذلك، نسخها الله فأنزل الله ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾.

وأصل الحديث في أن الآية التي تلي، نسخت حكم التي قبلها: موجود عند البخاري: ورواه مسلم متفرداً به من حديث يزيد بن زريع عن روح بن القاسم عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة، فذكر مثله. ولفظه: «فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل الله عز وجل: ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦] قال: ﴿ وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ﴾ قال: نعم، ﴿ رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ قال: نعم ﴿ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ قال: نعم» وفي رواية أخرى للإمام أحمد من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: «لما نزلت هذه الآية ﴿ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ﴾ قال: دخل قلوبَهم منه شيء. لم يدخل قلوبَهم من شيء غيره. قال: فقال رسول الله ﷺ: «قولوا سمعنا وأطعنا وأسلمنا»؛ فألقى الله الإيمان في قلوبهم، فأنزل الله ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ ﴾ ورواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة وأبي كريب وإسحاق بن إبراهيم ثلاثتهم عن وكيع وزاد «﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ قال: قد فعلت. ﴿ رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ﴾ قال: قد فعلت: ﴿ رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ قال: قد فعلت: ﴿ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ قال: قد فعلت. وفي رواية للترمذي مثله وقال: فأنزل الله ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ

بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ الآية وزاد فيه ﴿وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا...﴾».

هكذا خاف الصحابة، من أن لا يطيعوا شيئاً تنزَّل في كتاب الله تعالى، وهم حريصون على العمل بما يتنزل ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وخاف رسول الله أن يقعوا فيما وقع فيه اليهود والنصارى من قولهم: سمعنا وعصينا. فقال لهم: «قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير» فقالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير. فرحمهم الله بصدقهم. قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: ٢٨٥] ونسخ حكم الآية الأخرى بقوله تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ إلى آخر الآية.

وهذه الواقعة ـ في دلالتها على الاحتراس من الوقوع في الهوّة السحيقة التي وقع فيها أهل الكتابين بعامة واليهود بخاصة ـ تتجاوز حدود الزمان والأشخاص، لتكون درساً للأمة الإسلامية، في أن تبنيَ وجودها الذاتي على هدي الكتاب العزيز والسنة النبوية المطهرة، وأن تحذر شديد الحذر من الوقوع في شرك التقليد لمن أعمى الله بصائرهم، وزادهم غضباً على غضب، وهم في الآخرة هم الأخسرون.

لُعنوا... بما عصوا وكانوا يعتدون

من مقومات الوجود الذاتي لأمتنا ـ كما تدل النصوص ـ البعد عن التقليد الأعمى بعامة، وعن تقليد من يتمرغون في غضب الله، وتحكمهم الأهواء الضَّالة بخاصة. من معالم ذلك ما وقفتنا عليه خواتم سورة البقرة بدءاً من قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ..﴾ إلى آخر السورة حيث شق على الصحابة أن تكون هنالك محاسبة، حتى على ما تخفيه السرائر والضمائر، فهرولوا سراعاً ـ وهم الوقافون عند حدود الله والمثنيّ عليهم في القرآن الكريم ـ إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام، وشكوا ضعفهم عن تحمل هذا الأمر الخطير؛ لأنهم خافوا سوء العاقبة والعياذ بالله. ولكن الرسول ـ ويا نعم المربي هو ـ خاف عليهم أن ينزلقوا في تقليد اليهود والنصارى، فيقولوا في مواجهة أمر الله ورسوله: سمعنا وعصينا، وأن عليهم بوصفهم مؤمنين مصدقين بأن ما عند الله هو الخير ـ أن يقولوا: سمعنا وأطعنا وسلَّمنا؛ وذلكم هو الموقف الذي يقتضيه الوجود الذاتي لخير أمة أخرجت للناس.

لقد حذرهم الرسول الكريم أن يقعوا في تقليد المغضوب عليهم والضالين، ودلّهم على ما هو الأقوم والأهدى سبيلاً. وكانوا – رضوان الله عليهم – عند الذي وجههم إليه رسول الله عليه الصلاة والسلام، فقد أعلنوا ما يدل على صدق إيمانهم بالله وملائكته وكتبه ورسله وقالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فأثنى الله عليهم، وخفف

عنهم، وزادهم من فضله، ونزل ما نسخ الحكم الذي جاءت به الآية السابقة.

ودلَّ على ذلك من السنة: ما ثبت من الروايات عند أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وغيرهم، والتي أوردنا بعضها من قبل. ومن الخير أن نثبت الرواية ـ كما جاءت عند الإمام مسلم ـ ففيها ما يعطي هذه القضية الكبرى ما يعين على مزيد من التبيُّن.

فقد روى بسنده عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أنه قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ [البقرة: ٢٨٤] اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ ثم جثوا على الركب وقالوا: أي رسولَ الله، كلفنا من الأعمال ما نطيق، الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها، فقال رسول الله ﷺ: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير؛ فلما اقترأها القوم، وذلَّت بها ألسنتهم أنزل الله في إثرها ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: ٢٨٥] فلما فعلوا ذلك، نسخها الله تعالى فأنزل الله عز وجل ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾. قال: نعم ﴿رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ قال: نعم، ﴿رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا

بِهِ﴾ قال: نعم ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

ونتابع الرحلة مع مقولة التحذير من سلوك السبيل المعوجة الظالمة، التي سلكها أهل الكتاب ـ وبخاصة اليهود ـ لتطالعنا الآية الخامسة بعد المائة من سورة آل عمران بقول الله جل ثناؤه خطاباً للمسلمين: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران: ١٠٥].

والذين نُهى المسلمون عن التشبه بهم؛ تفرقاً واختلافًا في دين الله، وأمرِه ونهيه ـ من بعد ما ظهرت لهم حجج الله على الحق، فعدلوا عن ذلك إلى الباطل، ونقض العهود والمواثيق، والمخالفة عن أمر الله ورسوله.. هؤلاء الذين نُهي المسلمون عن الانزلاق فيما انزلقوا فيه، هم اليهود والنصارى. وهذا ما عليه جمهور المفسرين. وقد جاءت الرويات عن أهل التأويل بذلك، فقد روى ابن جرير الطبري بسنده عن الربيع في قوله تعالى: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ قال: هم أهل الكتاب، نهى الله أهل الإسلام، أن يتفرقوا ويختلفوا، كما تفرق واختلف أهل الكتاب، قال الله عز وجل: ﴿وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

كما روى أبو جعفر – رحمه الله – عن الحسن مثل ذلك حيث قال: هم اليهود والنصارى.

فالمراء والخصومات في دين الله، مع الإعراض عن البينات والأدلة، كل أولئك يكون سبباً في الهلاك؛ لأن حقيقة الدين تُحجَب عن أولئك

المعرضين المتمارين المتخاصمين، ويقوم بديلاً عنها الهوى والضلال، وينتج عن ذلك أن يحلَّ الاختلاف والفرقة، محل الاجتماع ووحدة الكلمة؛ وتسوء العاقبة في الدنيا والآخرة، قال ابن عباس – رضي الله عنهما – في تفسير الآية التي نسعد بصحبتها: «أمر الله جل ثناؤه المؤمنين بالجماعة، فنهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرهم أن من قبلَهم هلكوا بالمراء والخصومات في دين الله».

في ضوء تلك الروايات: قال شيخ المفسرين – رحمه الله –: (يعني بذلك جل ثناؤه: ولا تكونوا يا معشر الذين آمنوا ﴿كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا﴾ من أهل الكتاب ﴿وَاخْتَلَفُوا﴾ في دين الله وأمره ونهيه ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ من حجج الله فيما اختلفوا فيه، وعلموا الحق، فتعمدوا خلافه، وخالفوا أمر الله ونقضوا عهده وميثاقه جراءة على الله، ﴿وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ﴾ يعني ولهؤلاء الذين تفرقوا واختلفوا من أهل الكتاب، من بعد ما جاءهم من البينات «عذاب» من عند الله «عظيم» ثم قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه: فلا تتفرقوا يا معشر المؤمنين في دينكم تفرُّق هؤلاء في دينهم، ولا تفعلوا فعلهم، وتستنُّوا في دينكم بسنتهم، فيكون لكم من عذاب الله العظيم، مثل الذي لهم).

ويبدو أن ما نهي عنه المؤمنون، من أن يكونوا كاليهود والنصارى الذين اختلفوا من بعد ما جاءهم البينات، لا يقتصر على العقائد، ولكنه يشمل التزام الأحكام التي يكلف المؤمنون أن يعملوا بها، ويطوّعوا سلوكهم لها، فلا يختلفوا ذلك الاختلاف الذي تنحسر معه تلك

الأحكام عن المجتمع. يتضح ذلك إذا لاحظنا، أن الآية الكريمة التي نحومٌ حول معانيها وهي قوله تعالى: ﴿ **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾** ﴾. قد سُبقت بقوله جل وعلا في الآية الرابعة بعد المائة من سورة آل عمران: ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾** ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. وذلك بعد الذي تقدم من وجوب الاعتصام بحبل الله الذي جعلهم بنعمته إخواناً، بعد أن كانوا أعداءاً متفرقين.

من هنا نجد أن الله تبارك وتعالى، يريد لهذه الأمة أن تتوحَّد على الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، وأن تجتمع أبداً على تحكيم شريعة وقعت فيما وقع فيه أولئك الذين دبَّت فيهم الفرقة والاختلاف، من بعد ما جاءهم البينات، وأولئك لهم عذاب عظيم.

في ضوء هذا الشمول: نقرأ ما جاء في سورة المائدة ـ بدءاً من الآية الثامنة والسبعين من قول الله جل ذكره ـ: ﴿ **لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾** ﴾ [المائدة: ٧٨ – ٧٩].

هكذا يخبر ربنا تبارك وتعالى، أنه منذ دهر طويل، لَعن الكافرين من بني إسرائيل، فيما أنزله على داود نبيه عليه السلام، وعلى لسان عيسى بن مريم عليه السلام، وذلك بسبب عصيانهم واعتدائهم على خلقه، دون خوف من الله أو مراقبة ليوم الحساب، قال العوفي عن ابن عباس – رضي الله عنهما –: لعنوا في التوراة والإنجيل وفي الزبور وفي الفرقان.

ثم بين الله حالهم فيما كانوا يعتمدونه في زمانهم، من أمر إبراز المخالفة عن أمر الله، وعدم التناهي عن المجاهرة الظالمة بالمنكرات والمعاصي، فقال تعالى: ﴿كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ يستعلن المنكر في المجتمع، فلا ينهى عن ناهٍ، ولا يغار على دين الله وشرعه غيور. فلا بدع أن تحقَّ عليهم اللعنة من قديم، على لسان داود وعيسى ابن مريم عليه السلام، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون.

ولنا عودة إلى مزيد من عطاء هاتين الآيتين إن شاء الله، مع الإشارة إلى أن هذه الكلمات النورانية، تحمل التحذير البالغ للمسلمين أن يقعوا فيما وقع فيه بنوا إسرائيل، كما تشعر ببعض من أسباب الواقع الذي تعيشه أمتنا، وذلك واضح ـ كما سنرى بعون الله ـ في صريح هدي النبي عليه الصلاة والسلام.

واقعنَا.. وتقليدهم فيما لُعنوا من أجله

ما يزال الحديث موصولاً بالكلام على ما به يتحقق الوجود الذاتي للأمة، وذلك بأن تكون على الجادة في التزام ضوابط الشرع، والبعد عن كل ما يوقع فيما وقع فيه كفرة أهل الكتاب؛ أولئك الذين لا يرجون لله وقاراً، وأن تقليد من خالفوا عن أمر الله، وتجافت أعمالهم عن دعوى أنهم أهل كتاب سماوي، مرفوض رفضاً باتاً، والمخالفة عن ذلك، لا تحمد عقباها في قليل أو كثير. والعهد قريب باصطحاب قول الله تبارك وتعالى في سورة آل عمران: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤ - ١٠٥]. وواضح ما تحمل الآيات من مقومات لذاتية الأمة ووجودها الحقيقي، وما يجب أن تحذره من التردي فيما تردى فيه اليهود والنصارى من تفرق واختلاف يسببان الهلاك في الدنيا والعذاب العظيم في الآخرة.

وليس بدعاً أن يقود الحديث عن ذلك ـ والآيتان الكريمتان، يشمل التحذير فيهما ما يكون من أمر العقائد، وما يكون من أمر التكاليف والأحكام ـ إلى ما جاء من خصال ذميمة لكفار بني إسرائيل ـ لعنوا من أجلها ـ هي على النقيض مما أمر به المسلمون؛ فقد أمر المسلمون بالوحدة على كلمة الله، والدعوة إلى الخير، والأمر بالعروف والنهي عن المنكر؛ لأن

ذلك طريق الفلاح، إذ إن الدعوة إلى الخير، تبليغ لرسالة الإسلام التي تحمل الهداية والنور للعباد. وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حفظ لكيان المجتمع المسلم والدولة المسلمة، وعاقبة ذلك التمكين والمنعة في الدنيا، والفوز العظيم في الآخرة.

والخصال الذميمة التي نعنيها بشأن بني إسرائيل، والتي كانت سبباً في لعنهم وطردهم من رحمة الله: هي ما جاء في سورة المائدة، بدءاً من الآية الثامنة والسبعين، من قول الله تبارك وتعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ...﴾ الآيتان. فالعلاقة ـ والله أعلم ـ وثيقة بين ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ...﴾ الآية، وما جاء في الآية التي تليها من النهي عن التشبه بأولئك الذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم... العلاقة وثيقة بين الآيتين الكريمتين في سورة آل عمران، وبين ما جاء عن الذين كفروا من بني إسرائيل في سورة المائدة؛ فإذا انزلق المسلمون إلى ما انزلق فيه أولئك الكفرة اليهود، فمعنى ذلك أنهم واقعون في الفرقة والاختلاف؛ على ساحة العقيدة، وعلى ساحة ما خوطبوا به من تكاليف.

فإذا كان الذين كفروا من بني إسرائيل، قد لعنهم الله منذ أمد طويل ـ على لسان نبيه داود ونبيه عيسى بن مريم عليهما السلام، بسبب عصيانهم، واعتدائهم على الناس بشتى صنوف الاعتداء والأذى... ـ فالتحذير قائم للأمة المسلمة أن تقع فيما وقع فيه هؤلاء، أو أن تسلك أيَّ سبيل توصل إلى هذه الحمأة الآسنة والعياذ بالله ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ

بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾. ذلك اللعن بسبب عصيانهم، واعتدائهم على الخلق.

والطامة الكبرى: أنهم كانوا يرضون بالمعصية والانحراف عن دين الله، فلا يتناهون عن منكر، ولا يأتمرون بمعروف. وهنا ـ كما هو واضح ـ يكاد يكون التحذير لأمة الشهادة على الناس من الانحدار، إلى ما انحدر إليه هؤلاء المغضوب عليهم، أشد وأشد؛ لأن الله تعالى خاطب المسلمين بقوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. وأولئك الأناسي كانوا يسلكون المسلك النقيض، الأمر الذي أودى بهم إلى غضب الله والطرد من رحمته.

وهكذا يحمل هذا البيان عن هذا الصنف من الناس، والسبب الذي جعل اللعنة تحلّ عليهم، تحذيراً أيَّما تحذير وتنبيها أيَّما تنبيه، فإذا ارتكبت الأمة ما ارتكبوه ـ ولبئس ما كانوا يفعلون ـ فذلكم هو البلاء المبين.

روى الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي، نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا، فجالسوهم في مجالسهم، قال يزيد: وأحسبه قال: في أسواقهم، وآكلوهم وشاربوهم فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس فقال: لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطراً».

وأنت ترى في هذا الحديث: كيف أن النبي ﷺ حدد الطريق للمسلمين؛ فذاتية الأمة ووجودها الحقيقي، في أن تكون على الجادة؛ وقوفاً عند أمر الله ورسوله، وأن تكون بعيدة كل البعد عما وقع فيه أولئك المغضوب عليهم؛ والرسول ﷺ بعد أن ذكر ما ذكر عن بني إسرائيل، قال بلغة الجزم والردع، بادئاً بالقسم: «لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطراً».

وانظر إلى شديد اهتمامه بهذه القضية التي تبدو بالغة الخطورة، انظر إلى ذلك من خلال قول راوي الحديث: «وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس» فقال: «لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطراً» وقال أبو داود: حدثنا عبد الله بن محمد النضيلي قال: حدثنا يونس بن راشد عن علي بن بذيمة عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل: كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا، اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد، فلا يمنعه من ذلك أن يكون أكيلَه وشريبَه وقعيدَه. فلما فعلوا ذلك، ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ثم قال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ...﴾ إلى قوله: ﴿فَاسِقُونَ﴾ ثم قال: «كلا والله لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطراً، أو لتقصرنَّه على الحق قصراً».

ومما يؤكد حرص الرسول ﷺ على الذي نرىٰ، والحيلولة دون الأمة ودون أن تتشبه باليهود، فيأخذها من العواقب الوخيمة ما أخذهم، ما نجد في روايات أخر؛ كالذي روى ابن أبي حاتم بسنده إلى ابن

مسعود أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: «إن رجلاً من بني إسرائيل، كان إذا رأى أخاه على الذنب الذي نهاه عنه تعذيراً. فإذا كان من الغد لم يمنعه ما رأى منه أن يكون أكيله وخليطه وشريكه ـ وفي رواية وشريبه ـ. فلما رأى الله ذلك منهم، ضرب قلوب بعضهم على بعض، ولعنهم على لسان نبيين كريمين داود وعيسى بن مريم. ذلك بما عصَوا وكانوا يعتدون، ثم قال رسول الله ﷺ: والله لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر ولتأخذنَّ على يد المسيء ولتأطرنَّه على الحق أطراً، أو ليضربنَّ الله قلوب بعضكم على بعض أو ليلعننَّكم كما لعنهم».

ترىٰ هل نملك الشجاعة الأدبية في النقد الذاتي، فننظر في الأسباب الحقيقية التي أوصلت أمتنا إلى ما وصلت إليه؟ وما هي النسبة بين الواقع، وبين ما أراد رسول الله ﷺ ـ وهو الذي لا ينطق عن الهوى ـ أن تكون عليه أمة الإسلام من استمساكٍ بالحق الذي نزل به الكتاب، وبعدٍ عن تقليد من حلَّ عليهم غضب الله ولعنته إلى يوم الدين؟.

المكابرة وقسوة القلب

في متابعة لما يعين على مزيد من الإدراك للأهمية البالغة، التي أعطاها الإسلام للوجود الذاتي للأمة، وتحذيرها من تقليد أهل الكتاب، والوقوع فيما وقعوا فيه من الضلالة والعماية، وبخاصة اليهود، سعدنا فيما مضى بصحبة آيتين من سورة آل عمران وآيتين من سورة المائدة. فأما آيتا سورة آل عمران: فهما بدءاً من الآية الرابعة بعد المائة قول الله تباركت أسماؤه: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾.

[آل عمران: ١٠٤ – ١٠٥].

وأما آيتا سورة المائدة: فهما بدءاً من الآية الثامنة والسبعين قول الله جل ذكره: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: ٧٨ – ٧٩].

والنظر في تلكم الآيات الكريمات، يقود إلى تبيّن الارتباط الوثيق، بين ما جاء في سورة آل عمران، وبين ما جاء في سورة المائدة، وذلك على ساحة الكشف عن حمأة الضلال الفكري والسلوكي، التي وقع فيها أولئك الذين بدَّلوا نعمة الله كفراً، وتحذير المسلمين من سلوك أيٍّ سبيل توصل إلى ما وصلوا إليه؛ من تفرق واختلاف في الدين، من بعد ما

جاءهم البينات، فحقت عليهم كلمة الله بالعذاب العظيم، والانحراف عن طاعة الله والولوغ في معاصيه، والاعتداء على الناس، والتحول عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ كالذي حصل من بني إسرائيل ـ فكان سبباً في لعنهم وطردهم من رحمة الله تعالى في الدنيا والآخرة، إذ إن المسلمين، مطلوبٌ منهم أن يكونوا على غير تلك الشاكلة، مطلوب منهم ـ وهذا غاية التكريم ـ أن تكون منهم أمة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، وذلك طريق فلاحهم في الدنيا، ويوم الدين ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

أما الوقوع في مهواة التقليد، تقليدِ اليهود الظاهرين منهم والأخفياء؛ بما ارتكبوا ويرتكبون من ضلالات، على صعيد العقيدة والعمل والسلوك: فتلك طريق تتنافى مع الطريق الموصلة إلى الفلاح، وهي طريقٌ، من ركائزها: حملُ أمانة الإسلام بصدق وعزيمة، والدعوةُ إليه رسالةً تُسعد بني الإنسان في دنياهم وآخرتهم، وتصون المجتمع عن الأذى؛ وذلك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كيما تكون شريعة الله هي المحكَّمة الآمرة الناهية، ومنهجُ السلوك النابعُ من كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، هو المنهجُ الذي ينتظم حركة المسلمين.

ونخطو خطوة أخرى مع المقولة المباركة، مقولة التحذير من اتباع السبل التي سلكها المغضوب عليهم والضالون، فنالهم من لعنات الله وعقابه وغضبه ما نالهم... نخطو خطوة أخرى، لنقرأ في سورة «الحديد» تحذيراً بالغاً من الوقوع في أمر يتصل بأعمال القلوب، وحركة

النفس من داخلها، ألا وهو قسوة القلب ـ والمعاذ الله ـ وهي الطامة التي حاقت بأهل الكتاب من اليهود والنصارى؛ فالمطلوب من أهل الإيمان: أن يعملوا على أن تكون قلوبهم خاشعة أبداً لذكر الله وما نزل من الحق، لكيلا يصيبهم ما أصاب اليهود والنصارى الذين أوتوا التوراة والإنجيل، فطال عليهم الأمد، فأغوتهم الشياطين، وقعدت بهم أهواؤهم وشهواتهم عن العمل الصالح والخشوع لذكر الله، فرانت على قلوبهم القسوةُ وكثير منهم فاسقون؛ ذلك لأن القسوة إذا رانت على القلب، وأحكمت سلطانها عليه، فلا خير يرتجى، والفسقُ والخروج على دين الله كائن لا محالة. وما نعنيه من سورة الحديد هو ما جاء في الآية السادسة عشرة من قول الله تبارك وتعالى: ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾**﴾ [الحديد: ١٦].

يقول ربنا جل شأنه: أما آن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله، أي أن تلين عند الذكر والموعظة، وسماع القرآن بوعده ووعيده، وترغيبه وترهيبه فتفهمَه فهمَ تدبرٍ وتذكُّر، وتسمع له وتطيعه. وجاء النهي للمؤمنين بعد هذا، عن أن يتشبهوا بالذين حُمّلوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارىٰ، فلما طال عليهم الأمد، زاغوا عن طريق الهدى فأزاغ الله قلوبهم، فبدلوا كتاب الله الذي بأيديهم، واشتروا به ثمناً قليلاً، ونبذوه وراء ظهورهم، وأقبلوا على العبث الذي اخترعوه من عند أنفسهم، والآراء المختلفة الضالة والأقوال المؤتفكة التي قُوامها مجافاة الحق، والانحراف عن منهج الله.

ولم يقفوا عند هذا الحد، بل اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، حيث أحل لهم أولئك الأحبار والرهبان الحرام، وحرموا لهم الحلال؛ فظلوا على طاعتهم، بل وتقديسهم.. هنالك قست قلوبهم، فأصبحت كالحجارة أو أشدَّ قسوة، فلا يقبلون موعظة، ولا يتأثرون بتذكير، ولا تلين تلك القلوب بوعد ولا وعيد ﴿ **خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴿٧﴾ ﴾ [البقرة: ٧].

والمؤمنون ـ وقد اختارهم الله للجلّىٰ بحمل رسالة الإسلام ـ كان من رحمته سبحانه، أن ينبههم في وقت مبكر إلى مكامن الخطر كي يجتنبوها، وبذلك يكونون في منجاة مما انزلق إليه الآخرون، فكان ما كان من قسوة القلب والضلال والإضلال، قال الإمام مسلم في كتاب التفسير من صحيحه: حدثني يونس بن عبد الأعلى الصدفي قال: أخبرنا عبد الله بن وهب قال: أخبرني عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبي هلال عن عون بن عبد الله عن أبيه، أن ابن مسعود قال: ما كان بين إسلامنا، وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية ﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ** ﴿١٦﴾ ﴾ إلا أربع سنين. ورواه ابن أبي حاتم.

ومقالة «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية، إلا أربع سنين» لم تقتصر على عبد الله بن مسعود ـ كما هي رواية مسلم وابن أبي حاتم ـ بل يرويها لنا ابن ماجه في سننه على أنها من مسند عبد الله ابن الزبير – رضي الله عنهما –؛ قال رحمه الله في باب « الحزن والبكاء» من كتاب «الزهد» هناك: حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم قال: حدثنا محمد

ابن أبي فُديك عن موسى بن يعقوب الزَّمعي عن أبي حازم، أن عامر بن عبد الله بن الزبير أخبره أن أباه أخبره «أنه لم يكن بين إسلامهم وبين أن نزلت هذه الآية، يعاتبهم الله بها، إلا أربع سنين، ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾. قال البوصيري في كتابه «مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه»: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات.

والحق أن هذه الكلمة الهادية، التي توجه المؤمنين إلى خشوع القلب، ليكون يقظاً للتذكر والتدبر، حيث ينعكس ذلك على الجوارح، فتستقيم على مرضاة الله، والتي تحذرهم من أن يكونوا كاليهود والنصارىٰ، في سلوكهم الذي أدى إلى أن تكون قلوبهم قاسية، لا تلين لوعد ولا وعيد، ولا تنتفع بموعظة أو تذكير.. الحق أن هذه الكلمة الهادية ـ كما انتفع بها المسلمون الأولون ـ تضع المسلمين اليوم على الطريق التي هي أقوم، وتأخذ بأيديهم إلى معرفة الداء، كيما يعالجوه بالناجع من الدواء...

فإذا كان الصحابة المثنيُّ عليهم في القرآن والحديث، عوتبوا بهذه الآية، فكيف بنا نحن ـ والأمور على ما هي عليه ـ؟ روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن المبارك أنه قال: حدثنا صالح المري عن قتادة عن ابن عباس أنه قال: إن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة من نزول القرآن فقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾.

ألا إن القرآن يعلّمنا، أن المعالجة الحقيقية للواقع الأليم الذي لا نغبط عليه: تبدأ من هنا، فماذا نحن فاعلون؟

طال عليهم الأمد فقَست قلوبهم

ليس من مكرور القول، التذكير بضرورة التبصر الدائم، فيما حملت إلينا نصوص الكتاب العزيز والسنة المطهرة، من بالغ التحذير لأمتنا، أن تضل سبيلها، فتقع فيما وقع فيه أهل الكتاب ـ وبخاصة اليهود الذين يقفون لها بالمرصاد ـ سواء كان ذلك على ساحة العقيدة، أو الاحتكام إلى شرع الله، أو السلوك، ومن ورائه الحركة النفسية وأفعال القلوب.

ومن البداهة بمكان، أن يقود الحديث عن التبصُّر والتذكر على هذه الساحة؛ إلى ما جاء في سورة الحديد ـ كما سبق ـ من عتاب للمؤمنين، وتنبيه لهم في شأن خشوع القلوب لذكر الله، وما نزل من الحق، كيما يحصل التدبر الصادق، والتذكر المفضي إلى العمل المرضيِّ لله ولرسوله عليه الصلاة والسلام، ومن تحذيرهم، أن يكونوا كاليهود والنصارى الذين أوتوا الكتاب من قبل، فطال عليهم الأمد، فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون.

وما جاء في سورة الحديد ـ وهي سورة مدنية ـ هو قول الله جل ذكره في الآية السادسة عشرة: ﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾** ﴾ وقد بيّن سبحانه في الآية التي تلي، أن العودة الصادقة إلى الله كفيلة ـ بفضله تعالى ـ أن تنتقل بالمؤمنين من

الواقع الذي يخشى معه قسوة القلب، إلى الخشوع المطلوب؛ فالله جلت حكمته قادر أن يرد القلوب إلى الخشوع، قدرتَه على أن يحيي الأرض بالنبات والعطاء، بعد أن لا يكون بها حياة، ولا غود، ولا نبت ولا مطر. ذلكم قوله تبارك وتعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الحديد: ١٧].

ويبدو ـ والله أعلم ـ أن عناية الكلمة القرآنية بتنبيه المؤمنين على خطر قسوة القلب، التي حلت بأولئك الذين أوتوا الكتاب، فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم، وأن على المسلمين أن يكونوا شديدي الاحتراس من الوقوع في تلك الهاوية.. يبدو أن هذه العناية ترجع إلى أن القلب، إذا اعترته هذه القسوة، ورانت عليه، فلا خير يرتجىٰ منه ما دام على هذه الحال. فلا امتثال لأمر الله يحجز عن المخالفة، ولا تقوىٰ ترد عن معصية، أو عبث بأحكام الدين، واتخاذ آيات الله هزواً، ولا تذكُّر عند التذكير، ولا سماع لذكر الله ينعكس على السلوك، وحركة الإنسان في هذه الحياة.

وعلى السنن الذي سلكه القرآن في الهداية، بأسلوبه المعجز، نجد في الآية الثانية والعشرين من سورة الزمر، تقريراً لحقيقةٍ، مفادُها: أنه لا يستوى من شرح الله صدره للإسلام، فهو على نور من ربه، ومن هو قاسي القلب بعيد عن الحق لا ينفعل بالكلمة الهادية، ولا يتأثر بالموعظة التي تنير السبيل، وقد جاءت هذه الحقيقة على طريقة الاستفهام الإنكاري، لتثير العقل السليم، وتدعه يحكم ـ بعيداً عن الهوى والعناد ـ؛ إذ كيف يستوي هذا وذاك، ذلكم قول الله تبارك وتعالى:

﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الزمر: ٢٢]. ثم بيّن ربنا جلّت حكمته، أن المؤمنين الصادقين، ليسوا كأولئك الجاحدين المعاندين من اليهود والنصارى، الذين أوتوا الكتاب، فطال عليهم الأمد، فقست قلوبهم، وكثير منهم فاسقون، ولكنهم ـ بصدق إيمانهم وخشيتهم لله ـ تقشعر جلودهم عند سماع الذكر الحكيم، كلامِ الجبار المهيمن العزيز الغفار سبحانه، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله، لما يرجون ويؤملون من لطفه ورحمته ـ وهو الرحيم الرحمن، الذي سبقت رحمته غضبه ـ نقرأ في ذلك قول الله جل ذكره في الآية التي أعقبت سابقتها: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزمر: ٢٣].

هذا: وفي كتاب الله العزيز، ما يبين بوضوح أن قسوة القلب سمة من سمات اليهود المتأصلة فيهم، وإليها يعود الكثير من ضلالاتهم التي طبعت تحركهم في ميادين العقيدة والشريعة، ومنهج الأخلاق والسلوك؛ ففي سورة البقرة: بعد أن كشفت الآيات عما كان من تعنتهم، وتشددهم على أنفسهم في تعيين البقرة التي أبلغهم موسى عن الله، أن عليهم أن يذبحوها، من أجل معرفة القاتل الذي حاول ذووه أن يلقوا التبعة على غيره، في جريمة وقعت يومذاك، وما كان من سوء أدبهم معه عليه السلام، مع أنه قال لهم: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة، هكذا على الإطلاق دون تحديد.

في هذه السورة المباركة... نقرأ في أعقاب الكلام على ذلك التعنت والتشدد في أمر البقرة وسوء الأدب الذي صدر من أولئك الأناسي، مع نبيهم عليه السلام، قول الله تبارك وتعالى خطاباً ليهود، وذلك بدءاً من الآية الثانية والسبعين: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة: ٧٢ - ٧٤].

لقد شاهد بنو إسرائيل الكثير من آيات الله الدالة على قدرته وحكمته سبحانه؛ ومن هذه الآيات العظام: إحياء الموتى، فقد أحيا القتيل الذي قتله بعضهم. وادّارؤوا فيه ـ اختلفوا فيه ـ كلٌ يحيل القتل على غيره، ويدعي البراءة، فأحياه الله عندما ضُرب ببعض البقرة التي ذبحوها. وبعد أن عيَّن قاتله، وقبضه الله إليه، جحدوا وأنكروا؛ صحيح أن الذين جحدوا وأنكروا هم القتلة، ولكن الخطاب جاء عاماً؛ فخصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ عند الأكثرين؛ إذ إن الآخرين لم ينكروا على الجاحدين، ورضوا بما حصل منهم. ثم إن آية إحياء الموتى واحدة من آيات كثيرة، رأوها، فلم يتَّعظوا ولم تعنُ وجوههم للحق؛ فقال الله تقريعاً لبني إسرائيل، وتوبيخاً لهم على ما شاهدوه من آيات الله تعالى وإحيائه الموتى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾.

وهكذا تدل الكلمة القرآنية أوضح دلالة، على أن أولئك المغضوب عليهم، صارت قلوبهم مع طول الأمد، قاسية بعيدة عن الخير، لا تتأثر

بموعظة ولا تلين لتذكير بالله واليوم الآخر ـ وكل هذا بعد الذي شاهدوه من الآيات والمعجزات ـ فهي كالحجارة التي تستعصي على اللين، أو أشد قسوة من الحجارة، فإن من الحجارة ما يتفجر منه العيون بالأنهار الجارية، ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء ـ وإن لم يكن جارياً ـ ومنها ما يهبط من رأس الجبل من خشية الله.. فأين قلوب بني إسرائيل، من تلك الحجارة التي لها ما لها من هذه الخصائص؟ ذلكم قوله جل شأنه في تتمة الآية: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

أما بعد: فإن على المسلمين أن يدركوا تمام الإدراك، أن طريقهم ينبغي أن تكون مختلفة كل الاختلاف، عن طريق أولئك الذين يذكِّرنا هذا الذي نقرأ في سورة البقرة، من قسوة قلوبهم، وبما رأينا من قبل في سورة الحديد، من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾.

ولئن كان الواجب، عدمَ سلوك الطريق التي تؤدي ـ بسوئها ـ إلى قسوة القلب، إن رسول الله ﷺ علَّمنا ـ بجانب ذلك ـ أن نلجأ إلى الله سبحانه في أن يجنبنا ـ بمنّه وكرمه ـ كل ما هو من قسوة القلب، وعدم خشوعه، بسبيل. أخرج الترمذي بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ قال: «كان رسول الله ﷺ يقول: اللَّهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع، ودعاء لا يسمع، ومن نفس لا تشبع، ومن علم لا ينفع. أعوذ بك من هؤلاء الأربع».

ثم أين نحن مما صح عنه ﷺ، من جعله القلب موئل التقوى ومكانها، وذلك قوله - كما روى أحمد ومسلم والترمذي وغيرهم -: «التقوىٰ ههنا» وأشار إلى صدره ثلاث مرات؛ فإذا قسا هذا القلب من طول الأمد، فأين تكون التقوى؟؟ أين تكون وقد استُبدل الذي هو أدنى - وهو القسوة - بالذي هو خير - وهو تلك المنقبة العظيمة -؟.

وذلك هو الخسران المبين؛ لأن القلب إذا أصيب بذلك: فسد، وأصبح عاطلاً عن التوجُّه إلى الخير، وانعكس ذلك على فعل الجوارح، ففسد عملها بفساده، كما بيّن ذلك إمام المعصومين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

openkandl.com

قلوب كالحجارة أو أشد قسوة.. فاعتبروا

كانت لنا من قريب، رحلة قصيرة مع الكلمة القرآنية الهادية في سورة الحديد، تعاتب المؤمنين، وتدعوهم إلى أن تخشع قلوبهم لذكر الله، وما نزل من الحق، وتحذرهم بالغ التحذير، أن يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل ـ وهم اليهود والنصارى ـ فطال عليهم الأمد، فقست قلوبهم، وكثير منهم فاسقون. واقتضانا الأمر ـ والمقولة مقولة التحذير من التشبه بأولئك الكافرين الذين طال عليهم الأمد فقست قلوبهم ـ اقتضانا الأمر، أن نحط الرحال عند آيات كريمات من سورة البقرة، كشفت بجلاء عن أن القسوة التي أشير إليها في سورة الحديد، هي سمة من سمات اليهود المتأصلة فيهم، فهم لشدة القسوة التي ترين على قلوبهم، لا يخشعون لتذكير، ولا يتأثرون بموعظة، ولا ينتفعون بما يرون من الآيات والمعجزات الدالة على قدرة الله وحكمته، ومظاهرِ علمه المحيط سبحانه وتعالى.

لقد قست منهم القلوب، وغلظت وجفت، حتى باتت كالحجارة أو أشدَّ قسوة، فإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وإن منها لما يهبط من خشية الله، وكان لتلك السمة المهلكة انعكاساتها الصارخة على سلوك اليهود، ونظرتهم إلى أمور الدنيا والدين، فهم لا يرجون لله وقاراً، ولا يفتؤون يرتكبون كل موبقة، بغية الوصول إلى ما يريد لهم الهوىٰ والشيطان.

والآيات التي حملت إلينا هذه الحقيقة، جاءت بعد الكلام على تعنت بني إسرائيل، وتشددهم البارد في أمر البقرة التي أمروا بذبحها، وأن يضربوا القتيل ببعضها لمعرفة القاتل، في جريمة قتل جرى النزاع والاختلاف بشأن المقتول فيها، حيث حاول البعض دفع تهمة القتل عن صاحبهم، وإلقاء التبعة على آخرين غيرهم.

تلكم الآيات: هي قول الله تبارك وتعالى، خطاباً لليهود في عصر النبي ﷺ، لأنهم على سنن أجدادهم الذين فعلوا ذلك: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة: ٧٢ – ٧٤].

النفس التي قتلوها: تنازعوا فيها، فصار كل فريق يلقي التبعة على الآخرين، فهؤلاء يقولون: أنتم قتلتموه، وأولئك يقولون: بل أنتم الذين قتلتموه، ولكن الله الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء مُظهرٌ ما كانوا يكتمونه ويخفونه ذلكم قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾. أي والله معلن ومظهر ما كنتم تسرونه، من قتل القتيل الذي قتلتم، ثم ادَّارأتم: أي تنازعتم واختلفتم فيه.

وأمَرَ الله بأن يضرب القتيل ببعض البقرة التي أمروا بذبحها، فذبحوها، وكان ذلك، فأحيا سبحانه بقدرته القتيل، فنطق باسم القاتل،

وبالسبب الذي من أجله قتله، ثم قبضه الله إليه ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

ولكن ماذا بعد هذه الخارقة، وهي إحياء الميت، وجعله ينطق باسم قاتله، وبالسبب الذي من أجله قتله؟ لقد كان اللَّجاج والعناد، وكان الكذب وقسوة القلب، والعياذ بالله تعالى. أخرج الطبري في تفسيره «جامع البيان» بالسند عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه قال: لما ضرب المقتول ببعضها، يعني بعض البقرة، جلس حيّاً، فقيل له: من قتلك؟ فقال: بنو أخي قتلوني، ثم قُبض. فقال بنو أخيه حين قُبض: والله ما قتلناه، فكذبوا بالحق إذ رأوه فقال الله: ثم قست قلوبكم ـ يعني بني أخي الشيخ المقتول ـ فهي كالحجارة أو أشد قسوة.

وفي «تفسير القرآن العظيم» للحافظ ابن كثير: قال العوفي في تفسيره عن ابن عباس، لمّا ضرب المقتول ببعض البقرة جلس أحْيا ما كان قط، فقيل له: من قتلك؟ قال: بنو أخي قتلوني، ثم قبض، فقال بنو أخيه حين قبضه الله: والله ما قتلناه، فكذبوا بالحق بعد أن رأوه، فقال الله ثم قست قلوبكم من بعد ذلك ـ يعني بني أخي الشيخ ـ فهي كالحجارة أو أشد قسوة.

وواضح أن المراد بقوله تعالى: «من بعد ذلك»: من الأمر الخارق الذي حصل، وهو إحياء الموتى، وقد روى الطبري عن قتادة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ يقول: من بعد ما أراهم الله مِنْ إحياء الموتى، وبعد ما أراهم من أمر القتيل ما أراهم، فهي كالحجارة أو أشد قسوة.

هكذا يجيء التعبير عن تلك القلوب بغاية الوضوح.. فكأنه جل شأنه يقول: ثم جفَّت قلوبكم وصلُبت ـ بعد إذ رأيتم الحق فتبينتموه وعرفتموه ـ عن الخضوع له، والعمل بما يوجبه حقُّ الله عليكم، فقلوبكم كالحجارة صلابة وغلاظة ويُبساً وشدة، أو أشد قسوة، قال شيخ المفسرين: يعني: قلوبهم عن الإذعان لواجب حق الله عليهم، والإقرارِ له باللازم من حقوقه لهم، أشد صلابة من الحجارة.

ولعل هذه الصورة، تتضح أكثر وأكثر: إذا أتينا على ما قاله العلماء عن معنى (أو) في قول الله جل شأنه ﴿كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ فالإجماع منعقد على أن (أو) هنا ليست للشك، فذلك من المحال، تعالى الله سبحانه عن ذلك علواً كبيراً. ولذلك وردت عن علماء العربية والتفسير عدة أقوال في ذلك؛ من هذه الأقوال: أن (أو) في قوله «أو أشد قسوة» بمعنى الواو، والتقدير كالحجارة وأشد قسوة، كما قال تعالى في سورة الإنسان ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإنسان: ٢٤] بمعنى: وكفوراً، وكما قال جرير بن عطية:

نال الخلافَة أو كانت له قدراً كما أتى ربَّه موسى على قدر

يعني: نال الخلافة وكانت له قدراً.

وقال بعضهم: (أو) في هذا الموضع بمعنى (بل) ويكون التقدير: فهي كالحجارة، بل أشد قسوة، كما قال جل ذكره في سورة الصافات: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الصافات: ١٤٧] بمعنى بل يزيدون. وقال آخرون: المعنى: فقلوبهم لا تخرج من أحد هذين المثَلين:

إما أن تكون مثْل للحجارة في القسوة، وإما أن تكون أشد منها قسوة.

ومن هنا يكون التأويل على هذا المعنى: ثم قست قلوبكم؛ فبعضها كالحجارة قسوة، وبعضها أشد قسوة من الحجارة. وهكذا ترى أنها أوجهٌ من القسوة اتسمت بها قلوب أولئك المغضوب عليهم. والمؤمنون منهيُّون أشد النهي، محذَّرون أبلغ التحذير؛ عن سلوك أي سبيل قد تصل بهم من قريب أو من بعيد، إلى ما وصل إليه اليهود من تلك القسوة، بعد ظهور الآيات والمعجزات، ومنه إحياء الموتى، لأن قسوة القلب ـ كما أسلفنا من قبل ـ تنعكس آثارها على تصرفات الجوارح، حتى تصبح العلاقة بالدين، كأنها دعوىٰ بلا دليل. ومسلكُ اليهود في الماضي والحاضر: صورة واضحة لذلك.

من هنا نرى النبي ﷺ قد ربىٰ أمته على الابتعاد عن كل ما يوقع في قسوة القلب، فكان من هديه عليه الصلاة والسلام قوله فيما أخرج ابن مردويه من رواية ابن عمر – رضي الله عنهما –: «لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة في القلب وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي» وأخرجه الترمذي. وروى البزار عن أنس مرفوعاً: «أربع من الشقاء: جمود العين، وقساوة القلب، وطول الأمل، والحرص على الدنيا».

وصلى الله وسلم وبارك على معلم الناس الخير، الذي أدىٰ الأمانة، وبلّغ الرسالة ونصح الأمة، وجاهد في سبيل الله حتى أتاه اليقين.

أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ

وقفتنا نصوص الكتاب العزيز والسنة النبوية المطهرة في صفحات قريبات، على عدد من النماذج التي حملت تحذير المسلمين، من التردي فيما تردى فيه أهل الكتاب اليهود والنصارى، وبعضُهم أولياء بعض ـ من انحراف عن دين الله وطاعة للهوى والشيطان، حيث أورث ذلك ما أورث من قسوة في القلب، وجفوة عن الحق، وما يُنتظر من سوء العاقبة في الآخرة: أشدُّ وأنكىٰ.

وقد رأينا في ذلك، ما جاء في سورة الحديد، من قول الله تبارك وتعالى عتاباً للمؤمنين، ونهياً لهم عن تقليد اليهود والنصارى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد: ١٦].

وقد وقفتنا آيات كريمات، من سورة البقرة، على أن قسوة القلب ـ ذلك الداء العضال الذي يودي بصاحبه إلى المهالك في الدنيا والآخرة؛ اعتقاداً وسلوكاً ـ سمة من سمات اليهود والنصارى المتأصلة فيهم، ولا يعجز الناظر في تصرفاتهم قديماً وحديثاً، أن يقع على الكثير الكثير من الصور التي تثبت ذلك وتؤكده. والآيات التي نعنيها من هذه السورة المباركة: ما جاء بعد الكلام عن تعنت يهود في إنفاذ أمر الله لهم، من طريق موسى عليه السلام بذبح بقرة!!

وأود أن أشير هنا، إلى أنه مما يستوقف الناظر المتأمل، أن آيات الكتاب الكريم قد وجهت المسلمين ـ وهم يحملون رسالة الحق والخير ـ إلى أن عليهم أن يكونوا على يقظة تامة، بشأن هؤلاء اليهود، فيفيدوا من الحقائق التي يكشف عنها القرآن في شأنهم، وما يبينه من الخصال المتأصلة فيهم.. وأنهم إن فعلوا ذلك ـ وفروا على أنفسهم كثيراً من العنت في العلاقة بقُساة القلوب، ولم يقعوا في شرك الاغترار بهم، أو التشبه بشيء من فعالهم وسلوكهم.

والآيات التي رأينا، والتي وصفت من قسوة القلوب عند اليهود، بعد الذي رأوا من الآيات والمعجزات ما وصفت؛ فهي كالحجارة أو أشد قسوة.. أجل أشد قسوة؛ فإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وإن منها لما يهبط من خشية الله... هذه الآيات المباركات، أعقبها قول الله تعالى خطاباً للمؤمنين، وتنبيهاً لهم أن يكونوا شديدي الحذر: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [البقرة: ٧٥ – ٧٧].

يعني ربنا تبارك وتعالى: أفتطمعون يا أصحاب محمد، أي أفترجون يا معشر المؤمنين بمحمد ﷺ والمصدقين بما جاءكم به من عند الله، أن يصدقكم اليهود بما جاء به نبيكم ﷺ وأن ينقادوا لكم بالطاعة، وهم

يسيرون على نسق آبائهم الذين شاهدوا من الآيات البينات ما شاهدوه، ثم قست قلوبهم من بعد ذلك؟ وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه، يتأولونه على غير تأويله، ويكذبون على الله فيه، من بعد ما عقلوه، أي فهموه على الجلية، ومع هذا يتعمدون مخالفته على بصيرة، وهم يعلمون أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله، ولكنه العناد وقسوة القلب، وحدِّث عن عقابيل ذلك ولا حرج.

أخرج الطبري بسنده عن ابن زيد في قوله تعالى: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ قال: هي التوراة التي أنزلها عليهم يحرفونها، يجعلون الحلال فيها حراماً، والحرام فيها حلالاً والحق فيها باطلاً، والباطل فيها حقاً. إذا جاءهم المُحِقُّ برشوة أخرجوا له كتاب الله، وإذا جاءهم المُبْطِلُ برِشوة، أخرجوا له ذلك الكتاب ـ الكتاب المحرف ـ فهو فيه محق. وإن جاء أحد يسألهم شيئاً ليس فيه حق ولا رشوة ولا شيء، أمروه بالحق، فقال لهم: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة: ٤٤] وقال أبو العالية: عمدوا إلى ما أنزل الله في كتابهم، من نعت محمد ﷺ فحرفوه عن مواضعه.

وهكذا يكشف القرآن للمسلمين ـ بطريقة غاية في الوضوح والجزم ـ عن أن هؤلاء اليهود الذين كانوا في عصر النبي ﷺ، قد سبقت لآبائهم أفاعيل سوء وعناد، وانحراف عمدي عن جادة الحق، وهم ـ أي الأبناء ـ على ذلك السنن ـ حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذَّةِ ـ فكيف تطمعون في إيمانهم. أولئك عرفوا الحق وحاولوا تأوليه على غير وجهه، وتحريف الكلم عن

مواضعه وهؤلاء أيضاً عرفوا الحق وحاولوا طمس معالمه، وكذبوا بمحمد عليه الصلاة والسلام، مع علمهم بتبشير التوراة به، وأن عليهم أن يؤمنوا بما جاء به من عند الله عز وجل.

وجميل ما وجه إليه الإمام القرطبي، من أن الآية الكريمة، تدل أيضاً على أن العالم بالحق، المعاندَ فيه، بعيد من الرشد، لأنه علم الوعد والوعيد، ولم ينهه ذلك عن عناده.

هذا: ولعلنا لا نبعد النجعة، إذا رأينا أنه ربما كان من آثار قسوة القلب والبعد عن الله عند اليهود، ما كان منهم من النفاق؛ حيث كان فريق منهم يتظاهرون بالإيمان، تحقيقاً لمصالح يتوهمونها، وإذا خلا بعضهم إلى بعض، كان الأمر غير ذلك. فبعد قوله تعالى: ﴿**أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾**﴾. نقرأ قوله جل ذكره وتباركت أسماؤه: ﴿**وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾**﴾.

إن قدراً مشتركاً من الخبث والضلال، قائم بين النفاق، وبين ما يسلكه أهل العلم والمعرفة فيهم؛ من التحريف المتعمّد لما يسمعون من كلام الله، مع علمهم أنهم على الباطل، في تحريفهم ما حرَّفوا، وهم مقرون ظالمون.

فالنفاق ـ بإرادة مُريبة، وإصرار على تحقيق ما يمكرون من أجله

بالمسلمين ـ سلاح يستخدمونه في معركة، يخوضونها مع الحق وأهله.

وقل مثل ذلك ـ مع اختلاف الصورة لا غير ـ في تلك العملية الظالمة التي تتمثل في كونهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه ـ من بعد ما عقلوا تأويله وأدركوا مراميه ـ وهم يعلمون أنهم في تحريفهم ما حرفوا من ذلك، مبطلون كاذبون؛ فالنسب واضح كل الوضوح بين الأمرين.

ونعود مرة أخرى، إلى التذكير بأهمية ما نبه عليه القرآن، من أن الاطمئنان إلى هؤلاء المتَّسمين بتلك السمات في التعامل مع كلام الله وعباد الله، ضربٌ من العبث العابث، بعد أن تبيّن ما فعله الآباء منهم والأجداد؛ فكلهم يسير على سنن الضلال نفسه، بل قد يتوافر للأحفاد، ما لم يتوافر للأجداد من وسائل الأذىٰ وتعميق الانحراف، كالذي نراه في العصر الحاضر على صعيد المواجهة معهم، ومع من يمالئهم، وهم الظالمون المغتصبون المفترون.

وإني إذ أتمنىٰ أن يزداد تبصرنا بهذه الحقيقة، كيما يقف المسلمون على اليابسة في تعاملهم مع يهود في حالات الحرب والسلم ـ أن لو أُعيدوا إلى السِّلم ـ أود التذكير بكلام شيخ المفسرين الطبري حول قوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ...﴾ الآية. قال ـ رحمه الله ـ: (وذلك إخبار من الله جل ثناؤه عن إقدامهم على البهت، ومناصبتهم العداوة له، ولرسوله ﷺ وأن بقاياهم ـ في مناصبة العداوة لله ولرسوله ﷺ بغياً وحسداً ـ على مثل الذي كان عليه أوائلهم في عصر موسى عليه الصلاة والسلام).

اللَّهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، وأنر بصائرنا كي لا نقعَ في شرك المخادعة، والتزوير، ولا تنطليَ علينا حيل المخادعين والمزورين؛ فإنه دائما: وراء الأكمة ما وراءها، ورحم الله شيخ المفسرين أبا جعفر، فقد قال ما قال استنباطاً من الآية الكريمة ـ وقد توفي سنة عشر وثلاثمائة للهجرة ـ فما بالك لو شهد ما نحن فيه اليوم!! إن في ذلك لعبرة لمن يخشى!! والحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه.

opeikandl.com